يحيى حقي

قنديل أم هاشم

AR.FrenchPDF.com
فرنش بدف

لتحميل المزيد من الكتب والروايات
https://ar.frenchpdf.com

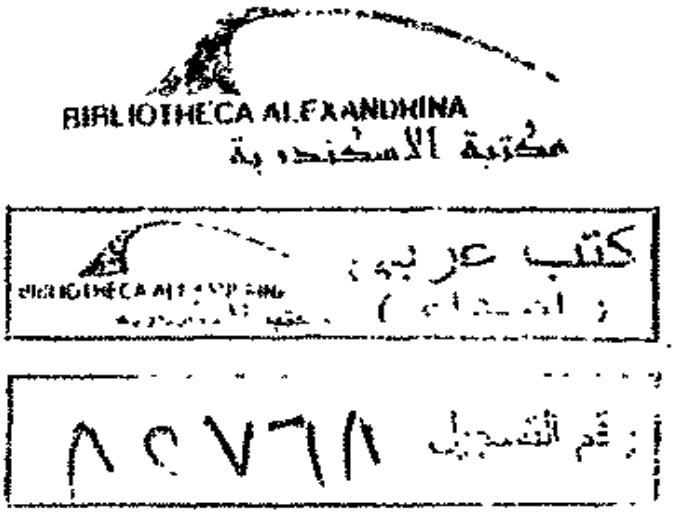

قنديل أم هاشم

قنديل أم هاشم

يحيي حقي

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

قنديل ام هاشم

يحيى حقى

	الجهات المشاركة:
	جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
	وزارة الثقافة
الغلاف	وزارة الإعلام
والإشراف الفنى:	وزارة التعليم
الفنان : محمود الهندى	وزارة الأدارة المحلية
المشرف العام :	المجلس الأعلي للشباب والرياضة
د . سمير سرحان	التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامّة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

أشجان عضو منتسب

سيرة ذاتية بقلم يحيى حقي

مطلوب مني أن أكتب هنا سيرتي الذاتية ،

التحدث عن النفس !

ياله من لذة ساحرة ، تواضعها زائف ،

ياله من ملل فظيع ، يستحب معه الانتحار .

أغلب أحاديثنا — بعد كلمتين ليس غير — تتحول من الموضوع — أيا كان — إلى الذات ، الشكوى أو الافتخار ، ولكني أحس أنهما ينبعان من نزعة واحدة متكتمة : استجداء تبرير الوجود .

وأنت معذور حين تقرأ هذه السيرة بعد قليل إذا حكمت — ولا أقول ظننت — أنني لكي أكتبها قد تزينت وجلست أمام

مرآة أتنزل ، (كم أود أن يكون بين الاختبارات النفسية دراسة مجاوبة الشخص لصورته فى المرآة : العجب ، عدم التصديق ، الافتتان ، النفور) ولكن ثق — وهنا عشمى فيك إن كنت لاتعرفنى — أن شيئا من هذا لم يحدث . أنقذتنى حيلة بسيطة ، التجأت إلى مقص قطع لى فقرات من أحاديث عديدة ظهرت لى فى الصحف والمجلات (يملأون فراغها على قفانا بالمجان !) ولصقت بعضها إلى بعض ، مضيفا هنا ، منقحاً هناك ...

ومع ذلك فصورتى فى هذه المرآة هى جلسة أمام فوتوغرافى محترف ، يسلط على أضواء أعشى لها ، وأعوج رقبتى لكى تعتدل فى نظره ، وأبتسم بلا سبب ، صورتى فى هذه الأحاديث مأخوذة خطفا — أحيانا وأنا فى مباذلى ، فهى أصدق . وهكذا أبرأت ذمتى منك وزيادة .

ولكن هذه السيرة ستقيس عمرى بالسنين والأيام ، وما هو بالقليل .. ظط ! لا قياس عندى لعمرى إلا بهذه اللحظات القليلة النادرة التى نبض فيها عرق فى روحى مهتزاً بجذل قدسى عند التقائى بالفن ، متلقياً ومعبراً . قمة هذا الجذل عند التقائى بالشعر والموسيقى — على قدم المساواة — ثم النحت ، ثم التصوير ، ثم العمارة . لست أدرى أين أضع بينها لقائى برشاقة الإنسان فى فن الباليه .

يعلو كل هذا جذل اللقاء بفن أعظم وأجل : فن الطبيعة وجمالها ، لو أفضت فيه لاحتجت أن أكتب مجلداً ضخما .. لحظات قليلة نادرة ، ولكنى عرفت بفضلها طعم السعادة وحمدت ربى عليها حمدا طويلا لا ينقطع ..

ولا ولوج إلى ساحة السعادة — فى اعتقادى — إلا من أحد أبواب ثلاثة : الإيمان والفن والحب ، لا شىء يشع بها مثل هذا الخشوع الذى أراه فى المعابد . وإذا كان الحب هو أكثرها التصاقا بالصلصال والحمأ المسنون ، وبالزمان والمكان والصدف ، فإنه شرط ارتفاع الإنسان عن مرتبة الحيوان ، وكان الإيمان أكثرها طموحا لأنه يطلب الله لا الناس ، الخلود فى الآخرة لا العبور فى الدنيا ، فسيبقى الفن وسطا جامعا للطرفين ، يالها من منزلة !

وقد عرفت مقامى منذ وعيت لهذا العرق الذى ينبض فى روحى ، لست من الملهمين ، ولا لى صاحب فى وادى عبقر . الإلهام نور ساطع كاشف لجميع آفاق الروح والعالم ، يهبط على

من يختاره دون سبب ظاهر ، فيتلقاه بغير سعي منه إليه . ما أبعد الفرق بين هذا النور وبين أزيز الشرارة الخاطفة التي أحس بها وهي تتقد أحياناً فجأة ثم تنطفىء لتوها . إنها لاتنير لى إلا دربا ضيقاً وسط غابة كثيفة ، يؤدى إلى كنز صغير لايفرح به الأثرياء .. حتم على أن أشرئب لكى أصطادها (وضعت هذا فى قطعة بعنوان « الشاعر بصير » ستجدها فى أحد مجلدات هذه الطبعة) — تنطفىء هذه الشرارة وتتركنى لكى أشق غاية الشقاء ... حتى يتفصد العرق من جبينى من أجل أن أصل إلى هذا الكنز الذى رأيته — بل قل حدسته — من بعيد ، كأننى أنحت فى صخر . وحتم على أن أزيل عن العمل كل آثار العرق ، ليظن الناس أنها ولادة سهلة .

إننى ممن يدخلون معبد الفن من أشد أبوابه ضيقا وعسرا ، وليست هذه الشرارة بزوارة ، لهذا كنت من المقلين ، أسمعهم يعيبون هذا على ، كأنهم يطلبون منى أن أكون من المدلسين . . يكفينى الصدق .

ومع هذا فان عمرى القصير فى الفن — إنه مجموع لحظات خاطفة عابرة — قد تجاوز نصف قرن ، وأحمد الله على ذلك ، لأن هذا الطول أتاح لى أن أشهد فى نفسى تحولا عجيبا ، ولولاه لما شهدته .

كانت الذات تندلق على الموضوع فى مطلع هذا العمر . هذا الاندلاق سهل ، وله فرحة ، واسترضاء للأنانية . وكنت

أشعر بشيء من الضيق دون أن أعرف سببه على وجه اليقين سببه أنني كنت خاضعا لبداية لابد منها : إنها مرحلة ستمر ولكن متى وكيف .. إنها حمومة الموسى !

وبدأ التحول شيئا فشيئا حتى تم أواخر عمرى ، أصبحت الآن أحس إحساسا واضحا قويا أنني لست إلا بوقا ، لا قيمة له فى ذاته ، ولكن قيمته أن إرادة لاندرى سرها قد اختارته لكى تهمس منه — على تقطع — سليقة اللغة والتراث ، مختلطة بأشجان الإنسان منذ أعز أجدادى — ساكن الكهوف — حتى اليوم .. أشجان الإنسان — أولا — فى علاقة روحه بربه ، نسيانه لها — كما قال هو فى كتابه — أشد عذاب تتوجع له وتئن .. بالكون : أين وكيف ينسلك فى نظامه ، يدخل خانته .. بالقدر : بين الثورة عليه والرضاء به .

ينعكس هذا كله على المجتمع المتقلب ليستطيع أن ينطق بلسان إنسان ويجد من يفهمه ، فليس من المفارقات قولى : إن الفن للفن هو المدخل الوحيد للفن من أجل الحياة .

ورغم أن هذا البوق قد عزلنى فقد استطعت أن أعوض لذة البوح بلذة المراقبة ، كأننى شاهد واقف على جنب ، يطل على شيء عجيب يحدث أمامه ، ويحاول فهم سره ، ثم لاينقضى عجبه منه ، الفن بهذا المعنى هو النغمة لا الوتر ، الزهرة لا البستانى ، النشوة لاقينة الحان .

ولو بقيت وحدى لزهقت روحى ، أو جفت وذرتها الرياح ، لا بد للنحلة من خلية . وجدت الصحبة والراحة والاطمئنان ، كما وجدت المدرسة التى أستكمل فيها تعليمى حين قدمت مارضيت عنه من أوراق إلى ناد عجيب.إنه وقف على من لمسهم الفن بعصاه السحرية ، أيا كان عصره أو لغته أو دينه أو جنسه أو لونه ، والرجال والنساء سواسية — هم داخله أحياء ، بينهم تواصل الأخوة وتراسل لاينقطع ، فسمح لى أن أنضم إليه ، عضوا منتسبا !

عرفت أننى — حتى قبل انضمامى إليه — كنت أكتب لهم . هم الذين يطلون على من وراء كتفى وأنا أكتب ، أصبح رضاؤهم هو مطلبى الوحيد . لاتخلو ورقة لى من أثر خاف لبصماتهم ، أو من إشارة مستترة إلى أعمالهم ، فلغة أهل هذا النادى صريحة «وشفرة» فى آن واحد ، ولا تجد حريتها إلا فى استعبادهم لها .

وأول مادة فى قانون هذا النادى هو توقير الكلمة سواء كانت من حروف أو أنغام أو حجر أو لون .

لا طرد من هذا النادى لجريمة سوى جريمة العبث بكرامة هذه الكلمة .. فماذا يبقى لهم ؟ .. ليس لهم جزاء سواها .

* * *

رضيت بنشر هذه الطبعة الكاملة لمؤلفاتى لقيمتها التاريخية أولا ، فالمتاحف قد تكون أولى بها من المكتبات — فأنت ستطل

على مسار نصف قرن ، يفترق عن المسارات الأخرى ، فإنه لم يأخذ من حيث انتهى سابقه مع تماثل أو تقارب فى المستويين ، بل أخذ بدايته من البداية ، فكتبت له الريادة ولو رغم أنفه ، لذلك كانت خطواته الأولى عسيرة متخبطة .

كان علينا فى فن القصة أن نفك غالب شيخ عنيد شحيح ، حريص على ماله أشد الحرص ، تشتد قبضته على أسلوب المقامات ، أسلوب الوعظ والإرشاد والخطابة ، أسلوب الزخارف والبهرجة اللفظية والمترادفات ، أسلوب المقدمات الطويلة والخواتيم الرامية إلى مصمصة من الشفاه ، أسلوب الواوات والفاءات والثمات والمعذ لكات والرعمذ لكات واللاجرمات والبيدأنات واللاسيمات ، أسلوب الحدوتة التى لايقصد بها إلا التسلية .

كنا نريد أن ننتزع من قبضة هذا الشيخ أسلوبا يصلح للقصة الحديثة كما وردت لنا من أوربا ، شرقها وغربها (ولا أتحول عن اعتقادى بأن كل تطور أدبى هو فى المقام الأول تطور أسلوب) .

كان علينا أن نضرب على يد من يحكى لنا قضية جنائية ، ويقول اكتبوها فهى قصة جميلة حقا ، ونقول له : القصة شىء مختلف أشد الاختلاف . وكان علينا آخر الأمر أن يقبل الناس إدعاء إنسان ما أن له الحق فى إعادة صياغة الواقع ، حتى ولو وقف عند هذا الحد ولم يضف قوله : إعادة صياغة بحرية لها أخلاقياتها

التى قد تعد عند الناس زيفا أو اجتراء ، كان من العسير أن يتقبل الناس هذا ، وأعترف لك أننى إلى اليوم أنتفض من شدة الضيق والكرب حين أقرأ : الفنان الخالق ، فلان خلق هذا العمل ...

إنى لا أعترف بخالق إلا بالله وحده ، أحب أن أكتب بدلها : هذا هو ابتكار الفنان ، الفنان المبتكر ، (لعل هذا هو سر موقف المسلمين — ولا أقول الإسلام — من النحت والتصوير) .

وكان لابد لنا أن نعمل حتى يكف الناس عن سؤالنا : وما هو المقصود من هذه القصة ؟ تلك العبارة التى كانت ترد بعد ختام كل حكاية فى كتاب القراءة والمطالعة ، فالمقصود من حكاية أن عدوا عاقلا خير من صديق جاهل ، وأن العاقل من اتعظ بغيره والجاهل من اتعظ بنفسه .

ومما زاد من المشقة والعسر فى الخطوات الأولى أن الفصحى لم تكن قد أفلحت بعد فى أن تسمى لنا أشياء نلمسها بأيدينا أو أفكارا مجردة تطوف بعقولنا ، أو ظلال عواطف تلم بقلوبنا ، وإذا صدقنا عددا غير قليل من المستشرقين لاعتقدنا أن هذه المشقة لم تكن عالقة بمرحلة البداية وحدها ، بل هى ممتدة لأنها ناجمة من خصائص الأسلوب العربى ، فهم يصفونه بأنه أسلوب يسير على خط أفقى مستقيم ، سطح ولا عمق ، لا يتركب منه بناء ينمو شيئا فشيئا ، إنه دلق البضاعة كلها دفعة واحدة أمام الزبون ، إنه — كما فى مآدبنا —

وضع جميع الأطباق على المائدة فى رتل متلاصق قبل جلوس الضيوف ، فالذى ينبغى أن يؤكل ساخنا يؤكل باردا ، ويزعمون أن أسلوب اللغات الغربية — وبالأخص الإنجليزية والفرنسية — هو أسلوب يشبه عمل فنان يرسم لوحة ، إنه يبنيها خطا خطا ولمسة بعد لمسة من فرشاته ، ناظرا طوال الوقت إلى التناسب والشكل التركيبى للوحة وموضع كل خط وكل لمسة فيه ، بل إنهم ينحبون إلى حد تفضيل الجملة الاسمية — وهى من خصائص لغاتهم — على الجملة الفعلية وهى من خصائص العربية ..

وكل هذا كذب فى كذب ، وحماقة ليس بعدها حماقة ، فليست اللغة كائنا مستقلا عن الفكر الذى يقودها ، فحين يلزم الفكر المستخدم للعربية ماينبغى لكل فكر ، من وضوح وبصر وجد

وعمق ، فإن لغتنا الفصحى لن تكون أقل قدرة على الأداء من لغات هؤلاء المستشرقين الأجلاء ، فالعيب ليس فى اللغة ، بل فينا نحن أنفسنا .

ولكن ينبغى لى أن أعترف وأقرر أن مشقة الخطوات الأولى فى انتزاع أسلوب القصة من أسلوب المقامات تمثلت أكثر ماتمثلت لدى من كان يقرأ الآداب الغربية بلغتها غير مكتف بالترجمات إن وجدت ، فإن الذى كان يراد اقتباسه من الغرب لا فن القصة وحده بل أسلوبها وصياغتها ، وتستطيع إلى اليوم أن تلحظ الفرق بين أسلوب قصصى له اطلاع على الآداب الغربية بلغاتها وأسلوب قصصى لا يعرف غير العربية .

وقد داعبتنا اللغة العامية أول الأمر فهممنا أن نجرى إليها — لا هربا من مشقة الفصحى فحسب — بل لأننا كنا نتلهف أن يكون الأدب صادق التعبير عن المجتمع ، ولكننا تحولنا — كأنما بدافع غريزى — إلى الفصحى ، لأنها هى الأقدر على بلوغ المستويات الرفيعة ، على ربط الماضى بالحاضر ، على توحيد الأمة العربية ، ومن الممتع أن تدرس كيف ساير تأثير العروبة على الأدب المصرى تأثيرها على سياستنا القومية .

ومما زاد من المشقة والعسر فى الخطوات الأولى أننا — نحن القصصيين — كنا نعيش فى شبه عزلة عن أبناء الفنون الأخرى ،

مع أن المشكلة عندنا جميعا واحدة ، ولابد أن ينتفع بعضنا بتجارب بعض . لكى يتساوى الخطو إلى الأمام على الأقل فى جميع ميادين الفن . بسبب هذه العزلة كان لابد لعملنا أن يكون هشاً وفقيرا مهما ملك من ماله الخاص ، (لهذا الفقر أسباب أخرى سأعرضها فيما بعد) أقول : كنا فى شبه عزلة ، إذ كانت لنا اتصالات لم تتصف بالنشاط مع أبناء الفنون الأخرى . نعد أنفسنا زمرة واحدة تضمنا وتضم مختارا ، وسيد درويش ، ويوسف كامل ، وأحمد صبرى .. وعددا آخر غيرهم .

والعجيب أن هذه العزلة ممتدة حتى اليوم ، بل يخيل لى أنها تفاقمت ، وكان المنتظر وقد زاد عدد المشتغلين بالفنون اليوم عن عددهم فى أيامنا الأولى أن تعمل هذه الزيادة على تيسير القضاء على تلك العزلة ، فإذا بها تزيدها مشقة ، فلا لقاء فى زحام شديد .

* * *

لم نكد نضع أقدامنا على أول الطريق حتى طارت بنا آمالنا ، كأن القصة وقد سكتت لاقتحامنا لحماها ، فأردنا أيضا أن ندخلها بحمارنا ، لم نكتف بالاقتداء بالقصة المستوردة ، بل أصبحنا نطمع فى أن ندخل تجديداً على شكلها داخل إطارها الذى عرفناه لها أى دون أن نخرج عنه ، فكان منا من سبق إلى كسر الترتيب الزمنى ولجأ إلى « الفلاش باك » ، أو من زعم أنه كتب قصة لها شكل دائرى ، أى تنتهى من حيث بدأت .. الخ الخ .

ثم قفزنا بعد ذلك سريعا إلى مطلب أهم ، أن تكون لنا قصة مصرية لحما ودما ، تنبع من خصائصنا وتدل علينا . . لكننا لم نستطع أن نتقدم فى هذا الطريق (لذات الأسباب التى وعدتك أن أعرض لها فيما بعد) وكان لابد لهذا المطلب أن ينتظر حتى تمد الفنون الشعبية رواقها فى ظل الاشتراكية ، وتمثل لتحقيق هذا المطلب أكثر ما تمثل فى المسرح .

يجب أن أعترف أن أغلب المنجزات فى هذا الميدان غير مقنعة ، وتبدو أحيانا مضحكة . إن اعتناقنا للاشتراكية لم يفرض أن يندرج أدبنا وآداب الأمم الاشتراكية فى وحدة واحدة ، ناجمة من وحدة المذهب ، أو وحدة المجتمع الذى قام أو يراد إقامته ، ولكننا قلنا إن اشتراكيتنا مصرية ليست صورة طبق الأصل من نظام اشتراكى أجنبى . لذلك ساغ حتى فى ظل الاشتراكية السعى إلى ظهور أدب محلى صميم .

وبجانب هذا التيار تيار آخر ، تيار ثقافة مترفة تقول بعالمية الفن دون نظر إلى انقسام هذا العالم إلى اشتراكية ورأسمالية ، فالفن عنده جوهر واحد لايقبل الانقسام ، وله هدف واحد لايتعدد .

وقد حاولنا عقد صلح بين التيارين فقلنا : إن كان الفن نهرا عظيما فلأنما له روافد عديدة ، كل منها له ذاتيته وخصوصيته ، ويجب أن نعمل وفقا لهذا الفهم .

لكى أشرح الأسباب الأخرى لهذا الفقر الفنى الذى عانيه فى مراحلنا الأولى دعنى ألجأ إلى التشبيه فإنى من المغرمين به ، حصيرة الصلاة عندنا ، قد تعد نقوشها — مهما بلغت بساطتها — تعبيرا عن ذوق فنى جميل وأصيل ، ولكن اقلبها وتأملها ، ستجدها مجدولة من ساقين لا غير من سيقان القش ، حتى بالعرض وحده ، دون الطول ، ارتفاع سطحها عن الأرض بحدده غلظ الساق وحده ، حقا لها ظاهر وباطن ولكن ليس لها عمق . قارن بها سجادة عجمية ، دعك من فنون سطحها — بهرجة ووقار وأصالة مولودة فى عصر حديث — اقلبها وتأملها ، ستجدها سيمفونية من خيوط متشابكة من عقد عديدة ، وكلما زادت العقد زادت القيمة ، لها دون الحصيرة عمق وتشابك .

كان المجتمع الذى بدأنا كتابة القصة فيه يشبه هذه الحصيرة ، فكان لا بد للقصة أن تكون مثلها فى البساطة والسطحية ، وكيف تريد لها أن تثرى وتتعمق دون أن يكون بجانبها حركة نشيطة فى الفلسفة ، فى الاجتهاد الدينى ، فى الدراسات التاريخية واللغوية — مجتمع بسيط ، لا انكشاف بعد فيه لفروق بليغة ومصادمات بين المصالح ، كان هناك جوار لا اشتباك .

إن ثراء نسيج المجتمع فى الحضارة الغربية ليس سببه تشابك خيوطه فحسب ، بل لأن هذا التشابك يجد أسانيده فى مقولات

الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد ، ولكن المجتمع الغربى يشترى هذا الثراء الآن بثمن باهظ ، هو تفتت الشعب إلى خلايا مغلقة على ذواتها ، لا تدافع إلا عن مصلحتها هى أولا ، فلنحذر هذا ..

وقد تجلى هذا الخلاف بين حصيرة الصلاة والسجادة أكثر ما تجلى فى الترجمة ، فهى ليست نقل لفظ إلى لفظ ، وحتى لو كان الأمر كذلك فى اللغات التى نترجم عنها تنشأ كل يوم تقريبا ألفاظ جديدة ليس لها مقابل عندنا ، إنها ليست ألفاظا مبتكرة ، فقد انقطع عهد الابتكار فى اللغة ، بل هى ألفاظ مألوفة ولكن خصصت لها معان جديدة لم تكن لها من قبل ، فاستقلت بها دون معانيها السابقة ، أومع معانيها السابقة ، وأصبحت الألفاظ غير معبرة عن معانيها فحسب ، بل عن علاقات يعكسها نسيج المجتمع .. فلا يمكن أن نترجم سجادة عجمية إلى حصيرة صلاة .

ولا ينطبق هذا الكلام بطبيعة الحال على الترجمة فى ميدان العلوم ، ولكن أصدق مثال عليه تجده فى المسرح ، وهو أكثر الفنون عكسا للمجتمع إذ يتكلم بلغته . ما أكثر ازدحام مكتبتنا العربية بمسرحيات مترجمة ، لماذا لانعترف أن العديد منها غير مفهوم ، بل بعضها يدعو إلى الضحك .

لا شك أن مجتمعنا يتحول بسرعة من هذه الحصيرة إلى تلك السجادة ... ومع انتشار التعليم ومحو الأمية سيرأ إنتاجنا الأدبى

من الضحالة والسطحية ، ومن هذا القدر الهائل من البديهيات ، وكل بديهية لها رنين الحكمة ...

كل هذا ولم أقل لك كلمة واحدة عن سيرتى وحياتى .. إليك بعضا مما تريد ..

* * *

فى أوائل القرن التاسع عشر قدم إلى مصر من مسلمى البوسنة شاب اسمه ابراهيم حقى ، كانت خالته الست حفيظة — خازندارة قصور الخديوى اسماعيل ، وبواسطتها عين قريبها الوافد فى خدمة الحكومة المصرية . عمل فترة بدمياط ، وتدرج فى الوظائف حتى أصبح مديرا لمصلحة فى بندر المحمودية بمديرية البحيرة .

وظل أهل ذلك البندر يذكرون له — بعيد وفاته بسنوات — صلاحه وتقواه وجمال خطه . وقد رزق ابراهيم حقى بثلاثة أبناء هم محمد ، ومحمود طاهر ، وكامل ، واستطاع أن يقتنى حوالى : مائة فدان .

التحق ابنه الأكبر محمد — وهو أبي — بالأزهر عدة سنوات ، ثم انتقل للدراسة بمدرسة فرنسية ، ولكنه لم يصبر حتى يتم تعليمه ، وآثر الالتحاق بوظيفة بوزارة الأوقاف ، وإن ظل مشغوفا بالقراءة ، مغرما بحفظ روائع الأدب العربي القديم ... روى لنا أنه خلال مجاورته بالأزهر كان يصلي الجمعة ذات مرة في مسجد غاب عنه إمامه ، ولأنه كان معمما فقد دعاه المصلون إلى ارتقاء المنبر وإلقاء الخطبة ... فلم يجد مخرجا من تلك الورطة إلا أن يتلو عليهم جزءاً من مقامات الحريري أوله « أيها السادر في غلوائك ... » فدهش المصلون لفصاحته وحضور بديهته ، وإن لم يفهموا من الخطبة شيئا !

وكذلك لم يتم الابن الأوسط محمود طاهر حقي — وهو عمي — تعليمه ، ولكنه اتجه بكل قواه إلى الكتابة والتأليف ، ومن أهم مؤلفاته رواية «علراء دنشواي» التي نشرها مسلسلة سنة ١٩٠٦ في صحيفة كان يصدرها اسمها « المجلة الأسبوعية » ، وكان الشاعر أحمد شوقي ينشر فيها بعض قصائده بأسماء مستعارة .

ولعمى محمود طاهر حقى عدد كبير من القصص والمسرحيات بعضها مطبوع ، وقد عمل فترة طويلة سكرتيرا للفرقة القومية منذ كان مديرها الشاعر الكبير خليل مطران .

وفى المحمودية كان من الطبيعى أن تتوثق العلاقة بين أسرة جدى وأسرة « السيد حسين » وكيل مكتب البريد ، فهو الآخر من أصل تركى وزوجته أرناءوطية (ألبانية) . وما لبثت هذه العلاقة أن تطورت إلى نسب ، إذ تزوج الابن الأكبر محمد من « سيدة » ابنة السيد حسين . وأثمر هذا الزواج عددا كبيرا من الأبناء ابراهيم ، واسماعيل ، ويحيى ، وزكريا ، وموسى ، وفاطمة ، وحمزة ، وصالح ، ومريم ...

كنت أنا الابن الثالث بين إخوتى ... ولدت فى ٧ يناير سنة ١٩٠٥ بحارة الميضة وراء مقام السيدة زينب فى بيت ضئيل من أملاك وزارة الأوقاف . ورغم أننا غادرنا حى السيدة وأنا لا أزال طفلا صغيرا ، فهيهات أن أنسى تأثيره على حياتى وتكوينى النفسى والفنى ، فما زلت إلى اليوم أعيش مع الست « ماشاء الله » بائعة الطعمية ، والأسطى حسن حلاق الحى ، وبائع الدقة ... ومع جموع الشحاذين والدراويش الملتفين حول مقام « الست » ..

كانت والدتى شديدة التدين ، مغرمة بقراءة القرآن الكريم وكتب الحديث والسيرة النبوية ، وكانت تختار أسماء أبنائها من

صفحات القرآن ، فاذا اقترب موعد الوضع فتحت المصحف على أى صفحة واختارت أول اسم يقابلها ... وكثيرا ما كانت تقرأ علينا صفحات من البخارى والغزالى ومقامات الحريرى ....

وكان أبى مفتونا بالمتنبى يحفظ كثيرا من شعره ويلقيه علينا فى جلساتنا المسائية ... وكان مغرما بالقراءة إلى أبعد حد حتى إنه كان يقرأ وهو يسير فى الطريق ... وما زلت أذكر كيف عاد لنا ذات يوم وجبهته مبطوحة قد نبتت فيها حبة زرقاء ، فقد صدم عمود الترام ، وهو سائر يقرأ فى صحيفة !.

وهكذا نشأت فى بيئة تعشق القراءة... والدتى وأبى .. وكذلك أخى الأكبر ابراهيم الذى يعرفه جميع باعة الكتب فى مصر ، جديدها وقديمها ... لقد كون لنفسه مكتبة عربية وانجليزية كانت أول معين استقيت منه ... وقد شارك أخى ابراهيم فى تحرير جريدة « السفور » ... أما أخى اسماعيل فقد ألف مسرحية لم تمثل ، بالاضافة إلى جهود عمى محمود طاهر حقى فى القصة والمسرحية والصحافة . .

أذكر أنه حينما كانت تظهر قصيدة لأحمد شوقى فى الصفحة الأولى من « الأهرام » كان البيت كله يقف على رجل .. كنا نقرؤها بصوت عال ونحفظها ونظل نرددها فى مختلف المناسبات . من هذه القصائد قصيدته فى البكاء على خلع السلطان عبد الحميد وما زلت إلى اليوم أحفظ مطلعها :

«سل «يلدزا» ذات القصـ ـور هل جاءها نبأ البدور
لو تستطيع إجابـة لبتك بالدمع الغزير»

وكان عمى محمود طاهر على صلة وثيقة بشوقى ، وعن طريقه أتيح لى الجلوس إلى شوقى عدة مرات سواء فى محل «صولت» الحلوانى أو فى بيته . وفى إحدى تلك المرات أعطانى قصته «أميرة الأندلس» وهى مخطوطة لأبدى فيها رأيى ، وكنت وقتها لا أزال شابا فى السادسة عشرة ، ومع ذلك فقد تجرأت ونقدتها بشىء من العنف ، وكان ذلك غرورا منى ندمت عليه فيما بعد ...

كان الجو الغالب على بيتنا يتلخص فى ثلاثة مظاهر :

الأول : شغف برشاقة اللفظ ، والابتهاج بالتوفيق فى العثور على الكلمة المناسبة للمعنى . لذلك كانت الخطابات التى نتبادلها تكتب بأسلوب أدبى متأنق .

الثانى : نوع من الحياء يتنبه لزلة اللسان مهما كانت طفيفة .

والمظهر الثالث يتمثل فى قدر من الانطوائية لأننا كنا أسرة موظفين من أصل تركى وليست لنا أملاك تذكر ، بعد أن أساء الأبناء إدارة الأراضى التى ورثوها عن جدى ، حتى أصبح وجودها كعدمه ، ثم ما لبثت أن تبددت .

بدأت تعليمى فى كتاب السيدة زينب ، ثم التحقت — كسائر إخوتى — بمدرسة والدة عباس ، وكانت مدرسة مجانية من أوقاف إلهامى باشا ، وكان يلتحق بها أبناء الفقراء فى حين كان أبناء الأغنياء يلتحقون بمدرسة الناصرية . وكانت تلك المدرسة تخلع على تلاميذها حللا خاصة كتب عليها بالقصب المذهب « مدرسة والدة عباس باشا الأول » .

قضيت فى المدرسة الابتدائية خمس سنوات غاية فى التعاسة .

كانت ضربات عصى المدرسين تجعل الدنيا تظلم فى عينى ، كما كنت أتعذب عذابا هائلا وأنا أحشر دماغى بمعلومات لا أكاد أفهم منها شيئا ولا لماذا يعلمونها لنا ... أؤكد لك أنى لم أفهم الفرق بين الرى

النائم وري الحياض إلا بعد أن تخرجت وعملت معاون إدارة في الصعيد ..

كان طبيعيا أن أرسب في السنة الأولى الإبتدائية ، ولكني لم أرسب بعد ذلك قط .. كنت أنجح كي أفر من هذا الجحيم ، ولكي لا أغضب أمي أو أجرعها خيبة الأمل .. كانت هي عماد الأسرة .. ربتنا بيديها ، تخيط ثيابنا وتحزمتة ، تطبخ وتطعمنا متكلفة في ذلك أشد العناء ، متحايلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر . إذا قدمت لنا طعاما نزرا لايغني ولا يسمن من جوع ضاحكتنا وصبت علينا ضحكة مرحة ، كأنما اجتماعنا حول المائدة لعبة مسلية ، فكنا — على ضحكها — ونحن نعلم أنه تمثيل ، نجد الطعام وفيرا مشبعا لذيذا ، وهي التي ربتنا بلسانها ، تحثنا بغير إلحاح على الاستقامة والجد والمذاكرة ، كسوط صاحب الجواد الأصيل ، له وقع وليس له لسع .

لايفوتني أن أذكر لمدرسة « والدة عباس » ميزتين :

الأولى أنها هي التي خرجت الزعيم مصطفى كامل ، فقد كان بيته قريبا منها ، وحينما التحقت بالمدرسة كان كل المدرسين الذين علموه قد تركوها الا واحدا هو الشيخ عبدالمنعم ، وكان يلقى الاحترام والتبجيل من الجميع لأنه كان يوما مدرسا للزعيم .

أما الميزة الثانية لتلك المدرسة فتتمثل فى تلك الصداقات العميقة التى ربطتنى بعدد من تلاميذها ، فمازلت محتفظا إلى اليوم بصداقتى للأستاذين محمد عصمت ومحمد لبيب الجبالى ، ومازلت أذكر بالخير صديقى المرحوم محمد ذو الفقار الأخ الأكبر للممثل صلاح ذو الفقار ، والمرحوم مصطفى حسن النائب العام السابق .. كلهم تعرفت بهم فى مدرسة « والدة عباس » الابتدائية ..

حصلت على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية سنة ١٩١٧ ، والتحقت بالمدرسة الاهلية الثانوية (بنياقادن الآن) وكانت تتبع نفس الوقت الذى تتبعه مدرسة «أم عباس» ، ومنها حصلت على شهادة الكفاءة ، ثم انتقلت إلى المدرسة السعيدية ، فالخديوية ومنها حصلت على البكالوريا سنة ١٩٢١ وكان ترتيبى الخمسين بين المتقدمين لتلك الشهادة .

كنت فى صباى أتمنى أن أصبح طبيبا لأنى أعشق اكتناه ذلك المجهول الكامن داخل جسم الإنسان ورأسه ، فأردت أن أتفرغ لدراسة أسباب علله وأمراضه ، وأسهم فى إسعاف من يحتاجون إلى العون والمساعدة ، وكذلك كنت أومن بأن المهنة الحرة هى أفضل عمل للانسان فهو فيها سيد نفسه . . وبعد حصولى على الكفاءة وقفت فى مفترق الطرق . . .

كان من الطبيعى أن ألتحق بالقسم العلمى لأحقق أمنيتى ولكنى

خشيت أن أرسب سنة أو أكثر ، وأشفقت أن أحمل الأسرة مزيدا من الأعباء والمصروفات ، فآثرت الالتحاق بالقسم الأدبى .

والتحقت بعد ذلك بمدرسة الحقوق العليا ، فى وقت كانت تمثل فيه قمة التعليم العالى ، لا يدخلها إلا المحظوظون ، وكان من زملائى فيها الأساتذه: توفيق الحكيم، والدكتور عبدالحكيم الرفاعى وسامى مازن ، وعبد الكريم أبو شقه ، والمرحوم حلمى بهجت بدوى . ودرس لنا نخبة من أساتذة القانون وفقهائه ، أذكر من بينهم الاستاذ الشيخ أبوزيد مدرس الشريعة .. كان رجلا دائم الابتسام يعالج الشريعة حتى يحيلها شرابا سائغا لو استطاع لصبه فى حلوقنا صبا . . والأستاذ أحمد أمين ، العالم الثبت فى قانون العقوبات ، والمرحوم الدكتورأحمد نجيب الهلالى.. حين دخل علينا أول مرة حسبناه — لنحافته وصغر سنه — تلميذا مثلنا ، وما كاد يتكلم حتى انعقدت ألسنتنا وفغرت أفواهنا إعجابا به ، فقد هدم فى درسه الأول كل ما بين أيدينا من كتب قديمة بالية بكلام جديد تشع منه الحياة . .

حين التحقت بكلية الحقوق كنت متشبعا بمبادىء الحزب الوطنى ، فقد كانت « اللواء » هى جريدة الأسرة المفضلة ، وإن لم يمنعنا ذلك من التعلق بسعد زغلول ومتابعة أحداث ثورة ١٩١٩ بحماسة شديدة ، فما أكثر ماكنت أصحب أبى وشقيق

إبراهيم وإسماعيل إلى الأزهر أو بيت الأمة، أو شادر مقام فى ساحة فسيحة لأستمع إلى خطباء الثورة ، وتبهرنى أصواتهم المجلجلة حتى أصبحت الخطابة من بين هواياتى :

وأحيانا كان الانجليز يسدون الطرق المؤدية للأزهر ليمنعوا الجماهير من حضور اجتماعات الثورة ، فكنت أسير مع أبى وأخوى فى طرق ملتوية وأزقة ضيقة حتى نصل الى الأزهر ونستمع إلى خطباء الثورة ، ونردد مع الجموع أناشيدها ، ومازلت أحفظ من بينها نشيدا مطلعه :

رسول السلم إلى مصر ـ انثر فى الطرق لنا الزهر

وكان أفراد الأسرة يتخاطفون بلهفة شديدة ما يصل إلى أيدينا من منشورات الثورة . . وقد سرت فى بعض المظاهرات الصاخبة التى كانت تكتسح شوارع القاهرة ، وحين كان الانجليز يطلقون علينا النار كنت أجرى مع الجارين .

ومازلت أذكر إلى اليوم الجموع الغفيرة من جميع طبقات الأمة التى خرجت لتشيع جنازة ابن القباقيبى فى حى الركبية - وكان قد قتل برصاص الإنجليز . .

فى تلك الأيام قرأت كل ما وقع فى يدى من كتابات عبدالله النديم ومصطفى كامل ، وكل مانشر عن حادثة دنشواى . . وهكذا

التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجدانى حتى الثمالة بحب مصر .. وعندما حدث الخلاف المعروف بين سعد وعدلى ، بين الوفد والأحرار الدستوريين . . اجتاحت بيتنا موجة عارمة من الكآبة وخيبة الأمل لفرقة الصف الوطنى . .

قبل أن ألتحق بمدرسة الحقوق كنت قد التقيت بمؤلفات المنفلوطى وجبران خليل جبران .. جرت دموعى مع «ماجدولين» ، وترنمت بشعر المهجر وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى . . وقادنى أخى ابراهيم فى دروب الأدب الانجليزى فقرأت كتبا لديكنز وروبرت لويس ستيفنسون وآديسون وغيرهم ...

أما فى الحقوق فقد كان على أن استكشف قارة جديدة مختلفة عن منطقة الأدب والفن والشعر والتاريخ والسياسة التى تعرفت عليها من قبل . . عرفت فى مدرسة الحقوق أن القانون رياضة ذهنية عليا ، تقارع فيها الحجة الحجة ، والإثبات عدم الإثبات .

ودخلت مع زملائى فى المدرسة فى سباق حامى الوطيس كانت حدته تزداد كلما اقتربنا من التخرج . . وانكببت على كتب القانون ألتهمها وثمة حلم يراود خيالى بالسفر لإتمام دراستى فى جامعات أوربا ، حيث البحث العلمى الحر وعباقرة فقهاء القانون وكاد الحلم يتحقق لولا هامش فى أحد الكتب عن الاتفاقية المصرية السودانية بشأن تسليم المجرمين ، أهملت ذلك الهامش وكان

موضع سؤال ، فجاء ترتيبي الرابع عشر فى الليسانس ، وسافر الأربعة الأوائل : حلمى بهجت بدوى ،و طه السيد نصر ، وعبد الحكيم الرفاعى ، وطالب رابع يدعى زهدى .. فى بعثات إلى الخارج ، فى حين بقيت أنا أقضى فترة التمرين بنيابة الخليفة ثم أعمل محاميا بالاسكندرية ودمنهور فترة قصيرة ، عينت بعدها معاونا للادارة ..

ومن أبرز آثار دراستى للحقوق شغفى الواضح بدراسة الجريمة والمجرمين .. لعلها مخلفات رغبتى الدفينة فى دراسة الطب واستكشاف كنه تكوين الانسان الجسمى والعقلى .. وبلغ من هذا الشغف أننى انشغلت فترة عقب تخرجى بكتابة عدة أبحاث عن الأحداث المنحرفين مدعمة بالاحصاءات والمقارنات ، وألقيت بعض المحاضرات العامة حول هذا الموضوع .

فى أول يناير سنة ١٩٢٧ تسلمت عملى الجديد معاونا للإدارة بمركز منفلوط حيث قضيت أهم ستين فى حياتى على الإطلاق .

أتيح لى خلالهما أن أعرف بلادى وأهلها وأخالط الفلاحين عن قرب ، وأعيش فى الحقول بين نباتها وحقولها ، وآكل بصلها وسريسها ، بل لقد وجدت فيهما سعادتى عندما أصبح الحمار يزاملنى طول النهار .

أهمية هاتين السنتين ترجع إلى أربعة أشياء :

أولها : استقلالى فى المعيشة ، أدخل وأخرج كما أشاء ، ومع ذلك ففى كل مرة كنت أضع فيها المفتاح فى الباب إذا عدت متأخراً بالليل ، كنت أشعر بشىء من الهيب كأنى فى بيتنا القديم وأمى تنتظر .

والثانى : اتصالى المباشر بالطبيعة المصرية والحيوان والنبات : كنت قبل ذلك لا أفرق بين القمح والشعير ، ولا أعرف عن الريف سوى منظر الحقول كما يبدو من نافذة القطار . ولعلك تلحظ فى القصص التى كتبتها فى ذلك العهد مقدار التحامى بالنبات والحيوان .. حقل القطن ، الجاموس المربوط على البرسيم الخ . .

ثالثاً : اتصالى المباشر بالفلاحين والتعرف على طباعهم وعاداتهم.

رابعاً : اتصالى المباشر أيضاً ، وبحرية ، بالجنس الآخر ، وقد عشت هناك تجربة حب خصبة عميقة ..

وسجلت تلك المرحلة على مستويين :

المستوى الوصفى فى « خليها على الله » ، وجعلت محورها تأمل أسباب تلك الهوة التى تفصل بين الحكومة والفلاحين .. وقد دهشت أشد الدهشة وأنا أكتبها بعد مرور ثلاثين سنة على التجربة ، ودون أن تكون لدى أى مخطوطات أو مذكرات ، ومع ذلك فقد وجدتنى لا أزال أعيش بكل وجدانى فى منفلوط سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ :

أما المستوى الثانى فهو التصوير القصصى فى مجموعة « دماء وطين » ، وهى عبارة عن صعيديات تدور فى منفلوط ، ولها بقية فى مجموعة « أم العواجز » مثل قصتى « لمزازة ريحة » و « حصير الجامع » .

* * *

قد يكون من المناسب أن أتوقف قليلا هنا لأروى قصتى مع القصة ، ومع الكتابة بشكل عام ..

بدأت أكتب فى سن مبكرة ، فى حوالى السادسة عشرة ..

ومعظم كتابات تلك المرحلة تجارب ساذجة لم أعن بجمعها أو الاحتفاظ بها .. ثم بدأت أكتب القصة القصيرة وأنا طالب بمدرسة الحقوق ، وبعد تخرجي .. وكنت متأثراً في كتابتها بالأدب الروسي أكثر من تأثري بالأدبين الانجليزي والفرنسي .. فقد وجدت في الأدب الروسي أن كل شخص تقريبا مشغول بقضية كبرى ، هي قضية خلاص الروح ..

يخيل إلي أن الأدب الصادق هو الأدب الذي ، وإن سجل وعبر وحلل وكتب بأسلوب واقعي ، لا يكتفي بذلك ، بل يرتفع إلى حد التبشير ، وهذا ما وجدته في الأدب الروسي فسحرني .

ويخيل إلي — مرة أخرى — أننا لا نستطيع أن نفهم روسيا إلا إذا فهمنا أنها تؤمن — لا أدري لماذا ؟ — بأن لها رسالة عالمية هي تخليص البشر كافة . وقد يكون في ذلك تفسير للدعوة العالمية للشيوعية ، كما قد يكون من الممتع حقاً مراقبة أثر التعايش السلمي الذي أصبحت تناجي به أخيرا على هذا الشعور الذاتي المتغلغل فيها .

نشرت أوائل قصصي في صحيفة « الفجر » التي كانت تصدرها المدرسة الحديثة برئاسة أحمد خيري سعيد ، ومن بينها قصة كتبتها وأنا واقع تحت تأثير الكاتب الأمريكي إدجار آلن بو(١) ، وأخرى أبطالها من القطط والكلاب اسمها « فلة . مشمش . لولو » .

---

(١) وهي قصة « السخرية أو الرجل ذو الوجه الأسود » .

وكانت « قهوة ديمترى » هى أول قصة نشرتها فى جريدة « السياسة » ، وقد خرجت منها بدرس فنى انتفعت به طول حياتى ..

فقد وصفت فيها قهوة حقيقية موجودة فى مدينة « المحمودية »، وسجلت فيها الواقع كما هو ، وصورت العمدة بطربوشه المائل كما رأيته تماماً .. مجرد تصوير بريء لم أقصد من ورائه شيئاً .. فإذا بالعمدة يغضب على غضبا شديدا ويظنني أهزأ به .

حرصت فيما بعد على أن أتجنب مثل هذه المطابقة ، بعد أن فهمت أن الأدب الواقعى ليس هو التصوير الفعلى ، وأصبحت الشخصيات التى أرسمها ليست منقولة عن فرد واحد ، بل عن مجموعة من الأفراد .

* * *

وأعود إلى منفلوط لأسجل الانقلاب الخطير الثانى فى حياتى . كنت راقداً بعد العشاء على السرير بعد نهار أنهك روحى وأن له جسدى ، أقلب — ولا أقرأ — صحيفة يومية ، فإذا بنظرى يقع على إعلان لوزارة الخارجية بأنها ستعقد مسابقة تعين الفائزين فيها بوظائف أمناء المحفوظات فى القنصليات والمفوضيات .

إلقاء النظرة على الإعلان كان مجرد مصادفة .. ولكنها قلبت حياتى رأساً على عقب ، فقد تقدمت للمسابقة ، ونجحت وإن جاء اسمى فى ذيل قائمة الفائزين ، فصدر الأمر بتعيينى أميناً لمحفوظات

القنصلية المصرية فى جدة باعتباره أسوأ المناصب الشاغرة وقتذاك .
ما أبلغ هذا الانقلاب فى حياتى !

فى جدة فيما بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٠ حدثت فى حياتى ثلاثة أحداث هامة :

رأيت المسلمين يأتون للحج من جميع أرجاء العالم فيكونون لوحة شاسعة كان لها أقوى الأثر فى نفسى .. وهناك درست المذهب الوهابى ومشكلات الحج والكورنتينات .. وكتبت حولها عدة مقالات فى مجلة « الرابطة الشرقية » ..

والتقيت فى جدة بالعقلية الغربية المنظمة .. ممثلة فى بعض رجال السلك الدبلوماسى . . من أهمهم « سان جون فيلبى » المستشرق البريطانى الذى قام بدور هام لحساب مخابرات بلاده ، واجتاز « الربع الخالى » وألف عنه كتابا ، وفان در مولن »

قنصل هولندا فى جدة ، وكان هو الآخر مستشرقا تخصص فى وضع الخرائط عن الجزيرة العربية ..

وفى تلك الآونة كان النشاط الدبلوماسى قليلا ، فرحت أقضى وقت فراغى فى مكتبة القنصلية حتى قرأتها عن آخرها .. وفيها اكتشفت تاريخ الجبرتى لأول مرة ، وفتنت به أشد الافتتان ، فلم أعرف كاتباً أو مؤرخاً استطاع أن يصور روح الشعب المصرى مثله ، ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاتصال الروحى بالجبرتى ، حتى لقد وقعت عدداً من مقالاتى الأولى باسمه : « عبد الرحمن ابن حسن » .. ومن أهمها ست مقالات عن « الدعابة فى المجتمع المصرى » كان هو مصدرى فيها ، ونشرتها فى جريدة « البلاغ » ، وأرجو أن تضاف إلى أحد مجلدات هذه الطبعة(١) ..

* * *

نقلت من جدة إلى استامبول سنة ١٩٣٠ ، وهناك أتيح لى أن أرقب من قرب تلك التجربة الخطيرة التى قام بها مصطفى كمال حين حول دولة شرقية إسلامية إلى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة ، وقد قرأت عن مصطفى كمال كثيرا والتقيت به أكثر من مرة وربما أتيح لى أن أكتب عنه يوما .

وفى استامبول ارتديت القبعة لأول مرة ، وتعلمت أن للقبعات علما وأصولا ، وأن ما يصلح للنهار أو الرحلات

(١) أضيفت بالفعل الى كتاب « فكرة فابتسامة » .

لا يصلح للمساء أو السهرة ، وأن لكل زى القبعة التى تتناسب معه واضطررت — بحكم الوظيفة — إلى شراء ستة أنواع مختلفة من القبعات بالإضافة إلى الطربوش .

وبذهابى إلى تركيا ، عدت إلى الأرض التى هاجر منها جدى وعثرت هناك على أقرباء لنا سكنت عندهم ، كما تعلمت التركية على كبر وأتقنتها . . فلم تكن اللغة التركية تستخدم فى بيتنا إلا للسباب فى لحظات الغضب . . كل ما تعلمته منها فى مصر لا يزيد على كلمات مثل : أدب سيس ، خرسيس ، سكتر بره . .

وحاولت الاتصال بأدباء تركيا ، وأسعدنى الحظ بمقابلة الشاعر عبد الحق حامد — شكسبير تركيا — فى أخريات أيامه والشاعر يحيى كمال ، ولكنى لم أعثر على الشاعر محمد عاكف وعلمت أنه فر من تركيا بعد الحركة الكمالية ، وأقام فى مصر زمنا .

وبعد أربع سنوات حافلة قضيتها فى تركيا نقلت إلى روما . فانتقلت من دكتاتورية أتاتورك إلى فاشستية موسولينى ، وكما تعلمت التركية تعلمت الإيطالية ، وأقبلت على الأدب الإيطالى أغترف منه . وقرأت مسرحية موسولينى الوحيدة « مائة يوم » وكتابا آخر ألفه بعنوان « اخى أرنالدو » وعلمت أنه كان يكتب

خطبه وبياناته الرسمية بنفسه ، فكانت قطعا من الأدب الحار الملتهب .

فى تلك السنوات بدأ اتصالى المباشر بالحضارة الأوربية، وأخذت موقف التلميذ فى الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح ، وإذا كانت الثقافة فى روما وحركة التجديد والنشاط والابتكار لا تبلغ الذروة التى بلغتها فى باريس ، فقد كانت تناسب شخصا مبتدئا مثلى ، معالمها واضحة ملموسة ، وضجتها محدودة وحياة الليل فيها لم تكن صارخة كما يقال الآن ، فوجدت نفسى غارقا فى عصر النهضة الذى نقل أوربا كلها من الظلام إلى النور. كل بضاعتى فى الموسيقى والتصوير وبقية الفنون ، الفضل فيها أرده إلى السنوات الخمس التى قضيتها فى روما .

ورغم ذلك فقد كنت أشعر دائما أن فى داخلى شيئا صلبا لا يذوب بسهولة فى تيار حضارة الغرب ، وقد وضحت ذلك مرة فى مقال قارنت فيه بين الأثر الذى تتركه روما فى القادمين إليها من الشمال والنازحين إليها من الجنوب ، ولاحظت أن أهل الشمال ينبهرون بشمسها وحضارة عصر النهضة ، أما أنا فقد وصلتها وعندى قدر أكبر من اللازم من الشمس . . عندى حضارة .. إن لم تفق . . فهى تماثل حضارتها ، وعندى دين هو نظام متكامل فيه الغناء .

عشت فى روما مع أطلع موسولينى وبهلوانيته ، وزرت ألمانيا وسمعت هتلر ورأيته هو وأعوانه وهم يؤججون الحركة النازية بالشعارات الضخمة ومشية الأوزة .

وطوال تلك السنوات لم أنقطع عن التفكير فى بلادى وأهلها كنت دائم الحنين إلى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون برزق يوم بيوم . وحين عدت إلى مصر سنة ١٩٣٩ شعرت بجميع الأحاسيس التى عبرت عنها فى « قنديل أم هاشم » : إن بطل القصة شاب يريد أن يهز الشعب المصرى هزا عنيفا ويقول له :

« اصح . . تحرك ، فقد تحرك الجهاد ! . . »

إنها قصة غريبة جدا كتبتها فى حجرة صغيرة كنت أستأجرها فى حى عابدين ، وعشت فيها لوثة عاطفية مثيرة عبرت عنها فى أناشيد « بينى وبينك » التى تجدها فى نهاية هذا الكتاب .

واسم إسماعيل . بطل « قنديل أم هاشم » أخذته من اسم صديق لى يدعى إسماعيل كامل ، كان آخر منصب شغله هو سفير مصر فى الهند ، فقد كان يمثل فى نظرى محاولة المزاوجة بين الشرق والغرب .

إن اسمى لايكاد يذكر إلا ويذكر معه « قنديل أم هاشم » كأنى لم أكتب غيرها . . وكنت أحيانا أضيق بذلك ولكن كثيرين

حدثونى عنها واعترفوا بعمق تأثيرها فى نفوسهم . . منهم أديب يمنى قال لى لقد أحسست أنك تصفنى حين أعود من القاهرة إلى اليمن . . وقال لى بائع كتب قديمة : مش القصة اللى فيها واد بياكل بفتيك فى أوربا وأهله بياكلوا طعمية فى مصر ! !

وحين أحاول البحث عن سبب قوة تأثير «قنديل أم هاشم» لا أجد ما أقوله سوى أنها خرجت من قلبى مباشرة كالرصاصة وربما لهذا السبب استقرت فى قلوب القراء بنفس الطريقة . .

* * *

تقلبت فى وظائف وزارة الخارجية ، وشغلت فترة وظيفة مدير مكتب الوزير ، وكانت الشفرة السرية للوزارة فى درج مكتبى ، وعملت مع النحاس والنقراشى وإبراهيم دسوق أباظة وإبراهيم عبد الهادى وأحمد محمد خشبة . .

وفى سنة ١٩٤٢ وجدتنى أشغل وظيفة مرموقة وقد بلغت السابعة والثلاثين من عمرى ومازلت أعزب ، فتزوجت كريمة عبد اللطيف سعودى المحامى وعضو مجلس النواب عن الفيوم . . ولم تدم سعادتى معها أكثر من ثلاثة أشهر ، أصيبت بعدها بمرض خطير مؤلم سحب النور من عينيها ، وسرعان ما توفيت بعد أن أنجبت لى وحيدتى « نهى » . وتركت فى نفسى حسرة لا تنقضى .

وأثناء عملى بديوان وزارة الخارجية توثقت صلتى بالمحقق البحاثة الأستاذ محمود شاكر ، وقرأت معه عددا من أمهات كتب الأدب العربى القديم ودواوين شعره . . ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها ، وفى إعتقادى أنها لغة عبقرية فى قدرتها على الاختصار الشديد مع الإيحاء القوى : .

ولست أخجل من القول بأنى منذ أمسكت بالقلم وأنا ممتلىء ثورة على الأساليب الزخرفية ، متحمس أشد التحمس لاصطناع أسلوب جديد أسميه الأسلوب العلمى الذى يهيم بالدقة والعمق والصدق . . ولقد أرضى أن تغفل جميع قصصى وكتاباتى ولكنى سأحزن أشد الحزن إذا لم يلتفت أحد إلى دعوتى للتجديد اللغوى فى محاضرتى « حاجتنا إلى أسلوب جديد » (١) وفى كثير من كتاباتى الأخرى . . والأسلوب الذى أطالب به هو أسلوب علمى يتميز بطلب الحتمية والدقة والوضوح ؛ لأن اللفظ عندى هو وعاء الفكر ، ولا وضوح لفكر إلا بهذا الأسلوب العلمى الدقيق . .

ومفهوم الحتمية . . حتمية اللفظ — هو أن يختار كل لفظ بدقة ليؤدى معنى معينا بحيث لا يمكنك أن تحذفه أو تضيف إليه لفظا آخر أو تكتب لفظا بدلا من آخر . . ولذلك قد أكتب

---

(١) أرجو أن تراجع نصها فى كتابى « خطوات فى النقد »

الجملة الواحدة ثلاثين أو أربعين مرة حتى أصل إلى اللفظ المناسب الذى يتطلبه المعنى . .

وأهمية هذه الدعوة ترجع الى أنها تعود الذهن على عدم استعمال ألفاظ عائمة ، معانيها غير محددة ، وموضوعة فى مكانها بلا سبب واضح . . فمثل هذه الألفاظ لا تخل بالمعنى فقط ، بل تشل قدرة الذهن على التفكير الناضج المحدد . . ولذلك أضيق أشد الضيق باستهانة الكتاب باللفظ واستخدامهم كلمات بلا معنى . .

ولكنى أشترط مع ذلك كله ألا يبدو على الكلام أثر من عرق الكاتب وجهده ، بل لابد أن يخفى هذا كله حتى ليبدو الأسلوب شديد البساطة . . عليك إذا عزفت على العود ألا تسمع الناس خبطة الريشة ، وإذا كتبت ألا تسمع القارئ صرير القلم . .

* * *

ونقلت سنة ١٩٤٩ سكرتيرا أول للسفارة المصرية فى باريس إن روما بالنسبة لباريس أشبه بمسرح صغير بالقياس إلى محيط هائل بلا قرار . .

وكان أهم ما شعرت به فى باريس ، وأعظم ما عشته فيها هو ذلك الإحساس الغامر بطعم الحرية ، ولم أكن ذقتها بهذا الشكل لا فى القاهرة ولا فى جدة ولا فى تركيا ، ولا حتى فى

روما . . فى باريس كل إنسان حر . . والحكومة هناك لا تشعر بها إلا فى شخص رجل المرور فقط لا غير . .

وعلى درب الفن التقيت بزوجتى الثانية ، جان ميرى جيهو لفتت لوحاتها وتماثيلها نظرى ، ومن خلال المناقشات الفنية تولد الود ، فالحب الذى نضج على نار هادئة . . وتزوجنا سنة ١٩٥٤ ومن أجلها تركت السلك الدبلوماسى لأعمل فى وزارة التجارة والصناعة مديرا لمصلحة التجارة الداخلية .

وقبل ذلك عملت مستشارا لسفارتنا فى أنقرة سنة ١٩٥٢ وبقيت فيها عامين رقيت بعدهما وزيراً مفوضا لمصر فى ليبيا . .

وفى سنة ١٩٥٥ أنشئت مصلحة الفنون بوزارة الإرشاد القومى ، فكنت أول وآخر مدير لها ، إذ ألغيت سنة ١٩٥٨ فنقلت مستشارا لدار الكتب ، حيث أتيح لى أن أفرغ لقراءاتى وأبحاثى سبعة أشهر ، قدمت بعدها استقالتى من الحكومة .

وخلال السنوات الثلاث التى عملت فيها فى مصلحة الفنون عاصرت وشاركت ونفذت الخطوط العريضة للنهضة الفنية فى مصر ، ابتداء من إنشاء المعاهد الفنية ومسرح العرائس ، وأوركسترا القاهرة السيمفونى وكورال الأوبرا . . حتى إنشاء فرقة «باليه ياعين » و« ندوة الفيلم المختار » التى تخرج فيها عدد غير قليل من شباب مخرجى السينما المصرية ونقادها . .

وفى إبرايل سنة ١٩٦٢ عينت رئيسا لتحرير مجلة «المجلة» وظللت أتولى مسئوليتها حتى ديسمبر ١٩٧٠ وطول تلك السنوات حاولت أن أحافظ للمجلة على شعارها الذى اتخذته لنفسها منذ انشائها ، وهو « سجل الثقافة الرفيعة » ، فسعيت ما وسعنى السعى لوصلها بالجامعات المصرية بنشر أبحاث أساتذتها النابهين كما حاولت ربطها قدر الامكان بمشاكل المجتمع الواقعية ، وما من بحث قيم بعيد عن النغمة الخطابية والدعائية والتبسيط إلا نشرته فيها ، بل وسعيت إليه وطلبته .

لم أتصور وظيفة رئيس التحرير على أن الدولة سلمته مجلة ليتبجح فيها على هواه ، ويطلع على القراء كل عدد بمقال له أو عنه ، . بل إن واجبه يفرض عليه أن ينشر فى المجلة أحسن ما يصله ومن بين ما يصله مقالته هو ، فإذا وجد فيما يصله ما هو أفضل منها لم ينشرها .

يبدو أن زحمة العيش وتشابك المصالح كانا يحولان بين العناصر

العلمية والأدبية الممتازة وبين التنبه إلى دورها فى احتضان « المجلة » وتبنى رسالتها . وما لم تشعر هذه العناصر بمسئوليتها عن أمثال هذه المجلات الثقافية الجادة ، فستظل تنضح فى بئر غير فياضة .

ورغم ذلك فقد نجحت فى تحويل مقر «المجلة» إلى ندوة متصلة لا تكاد تنفض ، يشارك فيها عدد كبير من شباب الأدباء والباحثين احتضنت « المجلة » إنتاجهم ، وكان لها شرف تقديم الكثيرين منهم إلى القراء لأول مرة .

هل يهمك أن تعلم بعد ذلك أنى نلت جائزة الدولة التقديرية فى الآداب سنة ١٩٦٩ ، وأنى أتشرف بعضوية المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ؟! .

* * *

وأعود لوصل ما انقطع من الحديث عن كتاباتى . . لقد عالجت معظم فنون القول من قصة قصيرة ورواية ونقد ودراسة أدبية وسيرة أدبيةومقال أدبى ، وترجمت عددا من القصص والمسرحيات ولكن تظل القصة القصيرة هى هواى الأول ، لأن الحديث فيها عندى يقوم على تجارب ذاتية ، أو مشاهدة مباشرة ، وعنصر الخيال فيها قليل جدا ، دوره يكاد يكون قاصرا على ربط الأحداث ولا يتسرب إلى اللب أبدا . .

وأهم الأفكار التى ألححت عليها فى قصصى هى :

أولا : الإعلاء من شأن الإرادة وجعلها أساسا لجميع الفضائل فالعالم فى نظرى معركة كبيرة ، والسلاح الأول الذى يستخدمه الإنسان فى خوضها هو الإرادة . . وما أكثر ما وصفت شخصية رجل طيب ولكنه ضعيف ، فتكون النتيجة الحتمية أنه يخزر جزرا . . وهذا واضح فى قصص مثل « نهاية الشيخ مصطفى » (نشرتها فى جريدة « السياسة » سنة ١٩٢٧) « وأم العواجز » « والسلحفاة تطير (١) » . .

ثانيا : الشغف بالدراسات والتحليلات النفسية وكانت لى قراءات مستفيضة فى علم النفس وتراجم كبار الفنانين المصابين

---

(١) القصة الثانية فى هذا الكتاب .

بتمزقات روحية ونفسية وتأثرت بآراء فرويد وآخر . . ومن القصص التى يتضح فيها هذا الشغف « الفراش الشاغر » و « سوسو » (مجموعة « عنتر وجولييت ») « ومرآة بغير زجاج » (مجموعة « أم العواجز ») وأشير فيها إلى أن كلا منا خزانة مغلقة لا يعرفها أحد ، وأن سر الحياة فى المقدرة على الجذب ، وفيها تعبير غريب جدا فى كلمات قليلة « وعجز يدى عن الامتلاك » ، إنه أصدق وصف لأشخاص تضيع منهم محافظهم وأموالهم . . وزوجاتهم . لافتقارهم للقدرة الإيجابية على الجذب .

ثالثا : التنبه لمفارقات الحياة ، وأول هذه المفارقات جبروت الإنسان وضعفه فى وقت واحد . ومن هنا تنشأ نغمة السخرية التى تسرى فى كثير من قصصى .

رابعا : الاهتمام بوصف الحيوان ، ومن أمثلة ذلك قصة « فلة . مشمش . لولو » ، « عنتر وجولييت » ، ووصف الحمار فى « خليها على الله » ، والجمل والبقرة والماعز فى « صبح النوم » .

خامسا : فى المرحلة الأولى انشغلت بالجنس ، فصورته الغريزة الجنسية كقوة واعية لها إرادتها المستقلة التى تنفذها من خلال البشر غير مهتمة بقوانينهم أو أعرافهم . وفى قصة « احتجاج »

(مجموعة «أم العواجز») صورت سيطرة هذه الغريزة على بيت ، لذلك تعمدت أن أكثر فيها من المصطلحات الفسيولوجية : قىء الحامل ليلة الدخلة ، غسيل الفوط الصغيرة المبقعة ، رائحة العرق .

ومنذ اشتغلت بكتابة القصة القصيرة ، وأنا أحاول دائما العثور على أشكال فنية جديدة . ولعلى فى قصة « البوسطجى » (مجموعة « دماء وطين ») كنت أول من استخدم « الفلاش باك » أى البدء بالأحداث المتأخرة فى القصة . لقد كتبت هذه القصة فى استامبول ومازلت أذكر تلك الليلة التى كتبت فيها وصف ليل الصعيد ، وكيف شعرت برجفة شديدة ، وأنا أكتبه . . ولقد سرنى أن سمعت من بعض من قرءوا القصة أنهم أحسوا عند هذا الجزء بنفس الرجفة (١) . .

وفى قصة « السلحفاة تطير » (فى هذا الكتاب) استخدمت الشكل الدائرى ، فانتهت القصة حيث بدأت .

وقد تكون رواية « صح النوم » أحب أعمالى القصصية إلى نفسى لأنها تطبيق صارم للمبدأ الذى أنادى به فى ضرورة التزام

---

(١) « ليل فى ظلمة العمى .. تلفع به الكون مرغما ، هبط على الفضاء حملا ثقيلا ، أحاط بالأرض كالقيد ، غطى الحقول كالكفن ، ولف القرى كالضماد . والحقر — ولاحد لاتساعه — إلى الشقوق فاحتواها . ثم تلفت يبحث عن مداخل النفوس التى يعلم أنها تستقبله وتتشربه ، فاحتلها يتمطى فيها . هو الآن فى كل زورة لكوم النحل يتسلل كاللص الى قلب عباس ، على غفلة منه ..»

الدقة والعمق فى أسلوب الكتابة . فليس فيها لفظ واحد لم يكن موضع جس ووزن ، وفيها صفحات كاملة لا يتكرر فيها لفظ واحد . والمسألة ليست صنعة بقدرما هى ثراء فى المعانى والأحاسيس التى تتطلب ألفاظا لا تتكرر . ومن الأجزاء التى أعتقد أنه حالفنى التوفيق فيها منولوج التربى الذى يناجى الطبيعة ، فالإنسان لا يلتحم مع الطبيعة التحاما كاملا إلا عند الموت . والتربى فى الرواية هو صاحب الخان الذى لا يستطيع أن يرى الناس إلا على حقيقتهم وهم سكارى ، فلما أغلقوا له الخان لم يجد أمامه سوى الموتى ليرى فيهم الإنسان على حقيقته .

وإلى جوار القصة ، والمقال الأدبى . لا الصحفى . أسهمت بقدر لا بأس به فى النقد والدراسات الأدبية ، فكتبت تاريخ «فجر القصة المصرية» بأسلوب درامى يجمع بين الحقائق العلمية والتشويق القصصى ، واهتممت فيه بإبراز المفارقات التى تثير السخرية كقولى عن الدكتور محمد حسين هيكل حينما نشر روايته: « زينب » بتوقيع « مصرى فلاح » : إنى لم أر رجلا مثله يتنكر حين يتشرف .

ويدل كتابى « خطوات فى النقد » على اتصالى منذ وقت مبكر بالحركة الأدبية فى مصر رغم بعدى المادى عنها ، ففيه مقالات عن ديوان رامى « ومصرع كليوباترا » لشوقى « وأهل الكهف » لتوفيق الحكيم .

وأعرف أنى منهم بأنى ناقد تأثرى ، ولكنى فى مقالى عن « مصرع كليوباترا » مثلا تحدثت عن أدق تفصيلات المسرحية فلم أترك حتى الشخصيات الثانوية . وفى مقالى عن «عودة الروح» لتوفيق الحكيم لعلى كنت أول كاتب مصرى يثير قضية الفن للفن والفن للحياة ، وقد أخذت على الرواية أن الذى يدافع عن مصر فيها رجل فرنسى !

وفى مقالى عن « المستحيل » لمصطفى محمود تحدثت عن كيفية نشوء الفكرة لدى الكاتب ، ثم كيف يخرجها على الورق ، كما قدمت تفسيرا اجتماعيا لشخصية كشكش بك يتضح منه مدى حبى لمصر وإشفاقى عليها .

وأزعم أنى أسهمت فى تطوير الكتابة الفكاهية ، خير ما يمثلها كتابى « فكرة فابتسامة » فالفكاهة فيه تقوم على المفارقات العقلية ودقة الملاحظة لسلوك الناس ، ومن مقالاته القريبة إلى قلبى « خرج ولم يعد » و« الحكاية وما فيها » و « سبعة فى قارب » الذى قدمت فيه تفسيرا لكل النوازع الفنية .

ومما أعتزبه صداقاتى العديدة بالأدباء الشبان واحتفائى بكتاباتهم على اختلاف مذاهبها ، فالحنو على الجيل الصاعد ليس مسألة عاطفية فى نظرى ، فالفنان الصادق هو الذى يشعر أن المعبد أو الهيكل الذى يعيش فيه يجب أن يستمر وأن يسلمه جيل إلى

آخر . هناك بالطبع لذة الأب وهو يرى ابنه يتقدم ، ولكن اللذة الأساسية هى المتصلة بوجود الفن واستمراره .

لعل ذلك يفسر كثرة المقدمات التى كتبتها لقصص الأدباء الشبان ، وقد سمعت من يقول إننى جاملتهم ، والواقع أننى لم أكذب فى أى مقدمة كتبتها بل قلت الحقيقة بأسلوب رقيق ، ولكنى أغضب حينما يوصف نقدى بأنه « دبلوماسى » ، لأن هذا معناه أنه نقد منافق ، وأنا سعيد بتقديم عدد كبير من الأدباء الشبان وبصفة خاصة محمد سالم والشبان الستة الذين اشتركوا فى إصدار مجموعة « عيش وملح » ولذلك حرصت على ضم هذه المقدمات إلى هذه الطبعة من مؤلفاتى (١).

وكانت لى مشاركة لابأس بها فى الترجمة ، فترجمة مسرحيتى « الطائر الأزرق » لميترلينك و « دكتوركنوك » لجول رومان وروايات : «أنتونى كروجر» لتوماس مان ، « ولاعب الشطرنج » لستيفان زفايج ، « والبلطة » لميخائيل سادوفيانو ، وسيرة اسكندر دوماس التى كتبتها إديث سوندرز بعنوان « الأب الضليل » بالإضافة إلى كتاب « القاهرة » لدزموند ستيوارت ، كما قمت بمراجعة ترجمة عدد من المسرحيات العالمية التى أصدرتها وزارة الثقافة .

---

(١) ستضاف الى كتاب « الشهودة للبساطة » .

أما الظاهرة الغريبة التى أحار كثيرا فى تحليلها وأنا أتأمل حياتى وإنتاجى ، فهى أنى وإن كنت من أصل تركى قريب ، فإنى أحس بأنى شديد الاندماج بتربة مصر وأهلها ، وفى بعض الأحيان يرجئ هذا الشعور رجا عنيفا .. ومعرفتى باللغة العامية المصرية وتعبيراتها تفوق ما حصلته منها مباشرة . قد يكون ذلك راجعا إلى الفطرة والحدس والإحساس غير الواعى ، ولعل هذا الحب هو الذى يميل بى إلى استخدام بعض الكلمات العامية فى كتاباتى رغم أنى من المهووسين بالفصحى .

وأثناء إقامتى الطويلة فى أوربا كان أكثر ما أحن إليه فى مصر هو أحياؤها الشعبية القديمة التى أسمع فى أزقتها كلمات مثل « اجرنها » و « يادلعدى » ، وأعايش تلك الروح الشعبية الحلوة الصابرة التى حاولت تصويرها فى « قنديل أم هاشم » . .

ياأخى . .

ها أنذا قد فتحت لك قلبى ، وقدمت لك فى مستهل هذه الطبعة الجديدة الكاملة من مؤلفاتى ما قدرنى الله عليه من سيرتى وآرائى ، أيا كان حكمك عليه فسأتشفع عندك بمثل فرنسى معروف يقول :

« إن أجمل امرأة لا تستطيع أن تمنح إلا ما عندها — لا أكثر . . »

يحيى حقى

(مايو ١٩٧٤)

قنديل أم هاشم

١

كان (١) جدى الشيخ رجب عبد الله إذا قدم القاهرة وهو صبى مع رجال الأسرة ونسائها للتبرك بزيارة أهل البيت ، دفعه أبوه إذا أشرفوا على مدخل مسجد السيدة زينب ،— وغريزة التقليد تغنى عن الدفع — فيهوى معهم على عتبته الرخامية يرشقها بقبلاته ، وأقدام الداخلين والخارجين تكاد تصدم رأسه . وإذا شاهد فعلتهم أحد رجال الدين المتعالمين أشاح بوجهه ناقما على الزمن ، مستعيناً بالله من البدع والشرك والجهالة ، أما أغلبية

---

(١) كتبت « تذييل أم هاشم » فيما بين عامى ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ، ونشرت لأول مرة فى سلسلة « اقرأ » ، العدد ١٨ ، يونيو ١٩٤٤ ، وأضيفت اليها فى الطبعة الحالية سيرة الكاتب الذاتية التى تنشر هنا لأول مرة .

الشعب فتبسم لسذاجة هؤلاء القرويين — ورائحة اللبن والطين والحلبة تفوح من ثيابهم — وتفهم ما فى قلوبهم من حرارة الشوق والتبجيل ، لا يجدون وسيلة للتعبير عن عواطفهم إلا ما يفعلونه : والأعمال بالنيات . وهاجر جدى — وهو شاب — إلى القاهرة سعياً للرزق . فلا عجب أن اختار لإقامته أقرب المساكن بجامعه المحبب . وهكذا استقر بمنزل للأوقاف قديم ، يواجه ميضأة المسجد الخلفية ، فى الحارة التى كانت تسمى (حارة الميضة) . « كانت » لأن معول مصلحة التنظيم الهدام أتى عليها فيما أتى عليه من معالم القاهرة . طاش المعول وسلمت للميدان روحه ، إنما يوفق فى المحو والإفناء حين تكون ضحاياه من حجارة وطوب ! ثم فتح جدى متجرا للغلال فى الميدان أيضا . وهكذا عاشت الأسرة فى ركاب « الست » وفى حماها : أعياد « الست » أعيادنا ، ومواسمها مواسمنا ، ومؤذن المسجد ساعتنا .

اتسع المتجر وبورك لجدى فيه — وهذا من كرامات أم هاشم — فما كاد يرى ابنه الأكبر يتم دراسته فى الكتاب حتى جذبه إلى تجارته ليستعين به ، وأما ابنه الثانى فقد دخل الأزهر ، واضطرب فيه سنوات وأخفق ، ثم عاد لبلدتنا ليكون فقيهها ومأذونها. بقى الابن الأصغر — عمى إسماعيل آخر العنقود ، يهيئه القدر واتساع رزق أبيه لمستقبل أبهى وأعطر . لعله خشى فى مبدأ الأمر ، عندما

أجبره أبوه على حفظ القرآن أن يدفع به إلى الأزهر ، لأنه يرى صبية الميدان تلاحق الفتية المعممين بهذا الهتاف البذيء :

ـ شد العمة شد ، تحت العمة قرد . . . . .

ولكن الشيخ رجب سلمه ، بقلب مفعم بالآمال ، إلى المدارس الأميرية ، وعندئذ أعانته تربيته الدينية وأصله القروى فسرعان ما امتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميه ، مع حشمة وكبير صبر . إن حرم التأنق لم تفته النظافة . وهو فوق ذلك أكثر رجولة وأقوم لساناً وأفصح نطقاً من زملائه (المدلعين) أولاد الأفندية المبتلين بالعجمة وعجز البيان ، فما لبث أن بذ الأقران وتلألأت على سيمائه نجابة لا تخطئها العين ، فتعلقت به آمال أسرته.

أصبح ، وهو لم يزل صبياً ، لا ينادى إلا بـ (سى إسماعيل) أو إسماعيل أفندى ، ولا يعامل إلا معاملة الرجال . له أطيب ما فى الطعام والفاكهة .

إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب ، وهو يتلو أوراده إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش ، ومشت الأم على أطراف أصابعها ، حتى فاطمة النبوية ـ بنت عمه ، اليتيمة أبا وأما ـ تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن أمامه فى جلستها صامتة كأنها أمة وهو سيدها . تعودت أن تسهر معه كأن الدرس درسها ، تتطلع إليه بعينيها المريضتين المحمرتى الأجفان ، وأصابعها

تعمل فى حركة متصلة لا تنقطع فى بعض أشغال (التريكو) من ذا الذى يقول لإسماعيل : تنبه إلى هاتين اليدين كيف دبت فيهما خلسة حياة غريبة وحساسية يقظة ، ولمس متعرف ؟ ألا تفهم ألا تفطن إلى أن دليل اقتراب عاهة العمى فى السليم هو أن تبدأ يده فى الإبصار ؟

— قومى نامى يافاطمة .

— لسه بدرى ما جاليش نوم .

بين حين وآخر تحيل دمعة مترقرقة شخصه إلى شبح مبهم فتمسحها بطرف كمها وتعود إلى تطلعها . الحكمة عندها تتمثل فى كلامه إذا نطق .

يالله ! كيف تحوى الكتب كل هذه الأسرار والألغاز ؟ وكيف يقوى اللسان على الرطانة بلغة الأعاجم ؟ وكلما كبر فى نظرها انكمشت أمامه وتضاءلت . قد يعلق بصره بضفيرتيها فيتريث ويبتسم . هؤلاء الفتيات ! لو يعلمن كم هى فارغة رؤوسهن ! ! إذا أوى إلى فراشه فعندئذ ، وعندئذ حسب ، تشعر الأسرة أن يومها قد انقضى ، وتبدأ تفكر فيما يلزمه فى الغد . كل حياتها وحركاتها وقف على توفير راحته . جيل يفنى نفسه لينشأ فرد واحد من ذريته . محبة وصلت من قوتها إلى عنفوان الغريزة الحيوانية . الدجاجة القلقة ذات النظرة المتجسسة الحذرة ترقد على بيضها

مشلولة الحركة ذليلة العين ، كأنها راهبة تصلى . . . هل هى هبات من فيض كرم ؟ أم جزية جبار مستبد ، إرادته حديد ، له فى كل عنق طوق ، وفى كل ساق قيد ؟ تعاق هذه الأسرة بولدها تعلق مسلوب الحرية والإرادة ! فأين بريك جماله ؟ جواب هذا السؤال عند قلبى . فما من مرة تمثلت فيها هذه الأيام البعيدة إلا وجدته يخفق بذكراها ، ويبدو لى وجه جدى الشيخ رجب وحواليه هالة من وضاءة ونور . أما جدتى — الست عديلة ، بسذاجتها وطيبتها ، فمن السخف أن يقال إنها من البشر ، وإلا فكيف إذا تكون الملائكة ! ما أبشع الدنيا وأبغضها لو خلت من مثل تسليمها وإيمانها .

٢

سمنة بعدسة وإسماعيل يفوز بالأولوية فإذا أعلنت النتيجة دارت أكواب الشربات على الجيران ، بل ربما شاركتهم المارة أيضا ، وزغردت (ما شاالله) بائعة الطعمية واليصارة وفاز الأسطى حسن — الحلاق ودكتور الحي — بحلوانه المعلوم وأطلقت الست عديلة بخورها وقامت بوفاء نذرها لأم هاشم . فهذه الأرغفة تعد وتملأ بالفول النابت وتخرج بها أم محمد تحملها فى مقطف على رأسها : ما تهل فى الميدان حتى تختطف الأرغفة ، ويختفى المقطف وتطير ملاءتها ، وترجع خجلة تتعثر فى أذيالها غاضبة ضاحكة من جشع شحاذى السيدة وتصير حادثتها فكاهة الأسرة بضعة أيام يتندرون بها .

وكذلك نشأ إسماعيل فى حراسة الله ثم أم هاشم . حياته لا تخرج عن الحى والميدان ، أقصى نزهته أن يخرج إلى المنيل ليسير بجانب النهر أو يقف على الكوبرى . إذا أقبل المساء وزالت حدة الشمس وانقلبت الخطوط والانعكاسات إلى انحناءات وأوهام ، أفاق الميدان إلى نفسه وتخلص من الزوار والغرباء إذا أصخت السمع وكنت نقى الضمير فطنت إلى تنفس خفى عميق يجوب الميدان لعله سيدى العتريس بواب الست — أليس اسمه من أسماء الخدم ؟ — لعله فى مقصورته ينفض يديه وثيابه من عمل النهار ، ويجلس يتنفس الصعداء . فلو قيض لك أن تسمع هذا الشهيق والزفير فانظر عندئذ إلى القبة. لألاء من نور يطوف بها ، يضعف ويقوى كومضات مصباح يلاعبه الهواء . هذا هو قنديل أم هاشم المعلق فوق المقام . هيهات للجدران أن تحجب أضواءه . يمتلىء الميدان من جديد شيئاً فشيئاً . أشباح صفر الوجوه منهوكة القوى ، ذابلة الأعين ، يلبس كل منهم ما قدر عليه ، أو إن شئت : فما وقعت عليه يده من شىء فهو لابسه . نداءات الباعة كلها نغم حزين .

— حراتى يا فول .

— حلى وع النبى صلى .

— لوبيه يافجل لوبيه .

— المسواك سنة عن رسول الله .

ما هذا الظلم الخفى الذى يشكون منه ؟ وما هذا العبء الذى يجثم على الصدور جميعها ؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من الرضا والقناعة.ما أسهل ما ينسون اتتناول أيد كثيرة قروشا وملاليم قليلة ليس هنا قانون ومعيار وسعر ، بل عرف وخاطر وفصال وزيادة فى الكيل أو طبة فى الميزان . . وقد يكون الكيل مدلسا والميزان مغشوشاً ، كله بالبركة ، صفوف تستند إلى جدار الجامع جالسة على الأرض ، وبعضهم يتوسد الرصيف . خليط من رجال ونساء وأطفال ،لا تدرى من أين جاءوا ولا كيف سيختفون، ثمار سقطت من شجرة الحياة فتعفنت فى كنفها . هنا مدرسة الشحاذين . حامل كيس اللقم يثقل الحمل ظهرة ينادى :

ـــ لقمة واحدة لله يافاعلين الثواب ، جاعان .

والشابة التى تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية :

ـــ ياللى تكسى الوليه يامسلم ، ربنا ما يفضح لك وليه !

صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ ، وعيناها الساحرتان تستهويان المطلات ، فتمطر عليها أكوام من الخرق ورث الثياب فى لحظة واحدة تثوب وتختفى ،فلا تدرى أطارت ، أم ابتلعتها الأرض فغارت .

وهذا بائع الدقة الأعمى الذى لا يبيعك إلا إذا بدأته السلام وأقرأك وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء .

ينقضى النهار فيودع كرش الطرشجى بقية براميله ، وتترك أقدام الخراط عملها اليومى وأدواتها ، لتعود بصاحبها إلى الدار . لا يزال البرام هنا وحشاً مفترساً له فى كل يوم ضحية غريرة . يتقدم المساء ينعشه نسيم ذو دلال . تسمع من القهاوى ضحكات غضة وأخرى غليظة « حشاشى » . وإذا دلفت من الميدان إلى مدخل شارع مراسينه (١) سمعت ضجيج السكارى فى خمارة أنسطاسى التى يلقبها أهل الحى بفكاهتهم خمارة « آنست » . يخرج منها سكير هائج يتطوح ويتعرض للمارة :

— ورونى أجعص فتوة .

— جتك لهوه يابعيد .

— سيبوه فى حاله دا غلبان .

— ربنا يتوب عليه .

أشباح الميدان الحزينة المتعبة يحركها الآن نوع من البهجة والمرح ليس فى الدنيا هم . والمستفيل بيد الله تتقارب الوجوه بود ، وينسى الوجيع شكايته . ويبذر الرجل آخر نقوده فى الجوزة أو الكتشينة وليكن ما يكون : تقل أصوات اصطدام كفف الموازين ، وتختفى عربات اليد ، وتطفأ الشموع داخل المشنات ، عندئذ تنتهى جولة إسماعيل فى الميدان . هو خبير بكل ركن وشبر وحجر ،

---

(١) هو الشارع المتجه من ميدان السيدة زينب إلى القلعة .

لايفاجئه نداء بائع ، ولا ينبهم عليه مكانه . تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقمها المحيط . صور متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد فى روحه أقل مجاوبة لايتطلع ولا يمل . لايعرف الرضا ولا الغضب إنه ليس منفصلا عن الجمع حتى تتبينه عينه . من يقول له إن كل ما يسمعه ولا يفطن له من الأصوات . وكل ما تقع عليه عينه ولا يراه من الأشباح ، لها كلها مقدرة عجيبة على التسلل إلى القلب ، والنفوذ إليه خفية ، والاستقرار فيه ، والرسوب فى أعماقه ، فتصبح فى كل يوم قوامه . أما الآن فلا تمتاز نظرته بأية حياة . . . نظرة سليمة ، كل عملها أن تبصر .

٣

اقتربت المراهقة وأخذ جسده يفور ، وكأنه مرغم ، فهو فريسة ممزقة بين قوى دافعة وأخرى جاذبة . يهرب من الناس ويكاد يجن لوحدته بدأ يشعر بلذة غريبة فى أن يندس بين المترددات على المسجد ، ولا سيما يوم الزيارة . فى هذا الزحام كان معنى اللباس عنده أنه فواصل بين الأجسام العارية ، يحس بها من صدمة هينة أو احتكاك وامض . فى وسط هذه الأجسام كان يشعر بلذة المستحم فى تيار جار لايبالى نقاء الماء . . روائح العرق

والعطر لاتكربه ، بل يتشممها بخيشوم الكلاب لا يخلو يوم الزيارة من بعض المرسمات — فسيدى العتريس مأمور أن لايصد أحداً عن الساحة — يفدن لتقديم شمعة للمقام أو للوفاء بنذر ، عسى الله أن يتوب عليهن ، ويمحو ما على الجبين من مقدر مسطور . كان يراهن من قبل فلا يفطن إليهن ، أما الآن فهو يتبعهن وتعلق نظرته بهن وتريث واختص بانتباهه فتاة تأتى كل يوم زيارة . سمراء جعدة الشعر ، رقيقة الشفتين . هذه هى نعيمة ، تمتاز عن زميلاتها بصمتها وقوامها الأهيف : كغصن يمشى مشية المتخاذل المتحل غير مكترث . أما هى ، فكأنما تسير إلى غرض ، مالكة كيانها وروحها . ذراعاها ممدودتان إلى جانبها ، يواجهك باطن كوعها ولو دققت النظر لما وجدت من موضع إلا ذراعين مكسورتين من أثر السقوط ، وإن كانت الثنية عندها سر الخلاعة !

يبتسم إسماعيل عندما يرى الشيخ دردير — خادم المقام — وسطهن كالديك بين الدجاج . يعرفهن واحدة واحدة ويسأل عن الغائبات ، يأخذ من هذه شمعتها ، ويوسع لأخرى طريق صناديق النذور . يتبدل رضاه فجأة ، فيزجرهن ويدفعهن دفعاً إلى الخارج . تأتى إليه أيضا نسوة ورجال يسألونه شيئاً من زيت قنديل أم هاشم ، لعلاج عيونهم أو عيون أعزائهم . يشفى بالزيت المبارك من كانت بصيرته وضاءة بالإيمان . فلا بصر مع فقد البصيرة . ومن لم يشف فليس لهوان الزيت ، بل لأن أم هاشم لم يسعها بعد أن تشفيه برضاها .

لعله عقاب آثامه ، ولعله هو لم يطهر بعد من الرجس والنجاسة ، فيصبر وينتظر ويتردد على المقام . فإن كان الصبر أساس مجاهدة الدنيا ، فإنه أيضا الوسيلة الوحيدة للآخرة .

فى هذا الزيت مورد رزق متسع للشيخ درديرى ، ومع ذلك لاتظهر عليه آثار النعمة . فجلبابه القذر هو هو ، وعمامته الغبراء هى هى . وماذا يفعل بنقوده ! هل يكنزها تحت بلاطة ؟ يتهمونه أنه يحرقها فى الحشيش ، بدليل سعاله الذى لا ينقطع وبدليل ما فى طبعه من ميل (للقفش) والتنكيت . والحقيقة أنه مزواج لايعرف الناس إلا ويبنى ببكر جديدة . عرف إسماعيل من تردده على المقام واعتاد أن يمر عليه فى أغلب الليالى بعد صلاة العشاء ليتمتع بحديثه . ومال الرجل للفتى واختصه بحنانه ، هذا الحنان هو الذى حمله ذات ليلة على الإفضاء إليه بسر لم يفض به إلى أحد غيره :

— تعرف ياسى إسماعيل ليلة الحضرة يجيء سيدنا الحسين والإمام الشافعى والإمام الليث . يحفون بالسيدة فاطمة النبوية والسيدة عائشة والسيدة سكينة . وفى كوكبة من الخيل ، ترفرف عليهم أعلام خضر ، ويفوح من أردانهم المسك والورد يأخذون أمكنتهم عن يمين الست وعن يسارها ، وتنعقد محكمتهم وينظرون فى ظلامات الناس ، لو شاءوا لرفعوا المظالم جميعها ولكن الأوان لم يأن بعد . فما من مظلوم إلا وهو ظالم أيضا ، فكيف الاقتصاص له ؟

فى تلك الليلة ، هذا القنديل الصغير الذى تراه فوق المقام ، يكاد لايشع له ضوء ، ينبعث منه عندئذ لألاء يخطف الأبصار إننى ساعتها لاأطيق أن أرفع عينى إليه . زيته فى تلك الليلة فيه سر الشفاء — فمن أجل ذلك لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين .

كان إسماعيل غائب الذهن ، يفكر فى الفتاة السمراء التى ترم شفتيها . وانتبه إلى الشيخ دردير وهو يشير بإصبعه إلى القنديل : وسنان كالعين المطمئنة رأت ، وأدركت ، واستقرت. يضفو ضوؤه الخافت على المقام ، كإشعاع وجه وسيم من أم تلقم رضيعها ثديها فينام فى أحضانها . ومضات الذبالة خفقات قلبها حناناً ، أو وقفات تسبيحها همساً . يطفو فوق المقام كالحارس مبتعداً تبجيلا . أما السلسلة فوهم وتعلة . . . كل نور يفيد اصطداما بين ظلام يجثم وضوء يدافع ، إلا هذا القنديل . فإنه يضىء بغير صراع ! لاشرق هنا ولاغرب ما النها رهنا ولاالليل ،لا أمس ولاغد.

وانتفض إسماعيل ، لايدرى ما هذا الذى مس قلبه ! .

٤

ووافقت المراهقة سنة البكالوريا . وخرج إسماعيل من الامتحان وقلبه واجف مفعم بالشكوك . وأعلنت النتيجة فإذا به يفوز ولكن فى ذيل الناجحين .

لقد كان أمله ورجاء الأسرة كلها أن يدخل مدرسة الطب فإذا بها تصده عن أبوابها . واقترب العام الجديد ولم يستقر على قرار . ليس أمامه إلا أن يدخل مدرسة المعلمين إن شاء أو أن يدرس للبكالوريا من جديد ، ويضيع سنة من عمره ، وكلا الأمرين بغيض إلى نفسه . لم يكن الشيخ رجب بأقل من ابنه قلقاً وحيرة

ولكم توقع بعض معارفه أن يكتفى بتعليم ابنه إلى الحد الذى يلغه ويوظفه بالبكالوريا ، إن لم يكن للمساعدة ، فللتخفيف عنه . آه لو علموا كيف عقد الشيخ رجب نيته على أن يدفع بابنه إلى الصفوف الأولى ! ! يذهب هنا وهناك يسأل عن حل . . لاأدرى من الذى قال له :

— لماذا لاترسل ابنك إلى أوربا ؟

بات الشيخ رجب ليلته يتقلب على جنبيه .

علم أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنيها فى الشهر ، غير ما يلزم لابنه فى أول الأمر من نفقات الطريق وثياب تقيه برد الشمال ؟ أيفارق ابنه ؟ وهل ترضى أمه ؟ أم سيقف حنانها فى سبيل مستقبل إسماعيل ؟ وهل يقوى على دفع هذا المبلغ بانتظام كل شهر ؟! إنه لو فعل لما بقى للأسرة كلها إلا ما تعيش به على الكفاف والشظف . وإلى متى ؟ ست سنوات أو سبعاً ، والزمان قاس يدور دورة عكس . كما سمع أذان العشاء سمع أذان الفجر ، ثم أخذته غفوة هتف به خلالها صوت رقيق :

— توكل على الله . . .

استيقظ من نومه وقد عقد عزمه . وفهمت الأم أن لامهرب من الفراق ، فرضيت صامتة وإن لم ينقطع بكاؤها . إلى أين ؟ بلاد برة ! كلمة لها رنين وسحر تتسلل ، كروح مبهمة لايطمئن

لها ، إلى المنزل الذى لاتنقطع فيه تلاوة القرآن ، وحيث الشرع هو الحق والعلم جميعا . وثوت هذه الروح فى ركن صغير من الدار وغطت رأسها وتمطت . ونابت متنصرة قريرة العين . بلاد برة ! ينطق بها الأب كأنها إحسان من كافر لامفر من قبوله لاعن ذلة ، بل للتزود بنفس السلاح . أما الأم ، فمنذ الآن تركبها رعدة الخيط وتأخذها رجفة البرد . تتصور بلاد برة فى نهاية سلم عال ينتهى إلى أرض تغطيها الثلوج ، ويسكنها أقوام لهم حيل الجن والاعيبهم. أما فاطمة النبوية فقلبها واجف تسمع أن نساء أوربا يسرن شبه عاريات وكلهن بارعات فى الفتنة والإغراء . فإذا سافر إسماعيل ، فلا تدرى كيف يعود إن عاد ! .

وجمع الأب كل ما استطاع جمعه من مال ، وباعت الأم حليها واشتريت تذاكر السفر والملابس الثقيلة التى تقى من برد أوربا واقترب موعد السفر وحل الوداع .

واجتمعت الأسرة صامتة حزينة . قلوب خافقة ، وعيون دامعة . وأنشأ الأب يقول لابنه :

- وصيتى إليك أن تعيش فى بلاد برة كما عشت هنا ، حريصا على دينك وفرائضه ، وإن تساهلت مرة فلن تدرى إلى أين يقودك تساهلك ، ونحن يابنى نريدك أن ترجع إلينا مفلحاً تتبيض

وجوهنا أمام الناس . أنا رجل قد أوشكت على الكبر . وقد وضعت كل آمالنا فيك وإياك أن تغرك نساء أوربا ، فهن لسن لك وأنت لست لهن .

ثم صمت الأب قليلا وعاد يقول :

ـــ واعلم أن أمك وأنا قد اتفقنا على أن تنتظرك فاطمة النبوية فأنت أحق بها وهي أحق بك . هي بنت عمك وليس لها غيرك . وإن شئت قرأنا الفاتحة معاً يومنا هذا ، عسى أن يصحب سفرك البركة واليمن .

لم يسعه إلا القبول . فوضع يده في يد أبيه ، وقرأ الفاتحة بينهما أم تبكي ، وفتاة حيرى بين الأسى والفرح .

كان إسماعيل يعلم أن هذه الفاتحة ستأتي في يوم ، ولكنه لم يتوقعها في تلك الليلة . فلقد نشأ مع فاطمة النبوية أخوين وقلما نظر إليها كما نظر إلى فتاته السمراء .

قرأ الفاتحة وهو شارد اللب . إرضاء لأبيه ، وقلبه يقول له : «احفظ عهدك ! » فيجيبه : «لماذا ؟ لماذا ؟ » كل هذه أشياء غامضة ، لأنه حتى اليوم مايزال طاهراً عفيفاً ، لم يقترب من امرأة . وإنه لكاذب ـــ وإسماعيل لايكذب ـــ إذا أنكر أنه جوعان إلى فتاته السمراء ، إلى النساء جميعاً ، ولا سيما أخيراً ! إلى نساء أوربا .

٥

وخرج اسماعيل يودع بعض أصدقائه ، ثم انتهى الى الميدان وقد اقترب الغروب ، . تتلقف آذانه ما أمكنها من نداءات الباعة التى ألفها ، وخيل إليه أن فى الميدان حركة غير التى عهد . كأن القوم أصبحوا أسرع مشية . ما لهم لايلوون على شىء ؟ أفليست الحياة إلا سباقاً ؟ كم ود لو وقف واحد من المندفعين وبادله الحديث . لم يلتفت إليه أحد . فى الميدان حركة النمل تتعارض وتتحاذى وتضرب فى كل اتجاه . قادته قدماه إلى المقام ، فوجده ساكنا على غير عادته . الشيخ دردير واقف مطأطىء الرأس ، كأنما هو متعب أو تسلط عليه خوف ورهبة . دار إسماعيل حول المقام ، حتى إذا جاء للسور الذى يفصل مكان النساء عن

الرجال انتبه إلى شبح واقف وراءه هي فتاته السمراء ألصقت جبينها على السور . سمر إسماعيل في مكانه وسمعها تقول هامسة :

— يا أم هاشم : ياستارة على الولايا ، لاتغضى عينيك ولا تشيحى بوجهك . تمد إليك يد مسترحمة فخذيها . إن الله طهرك وصانك وأنزلك الروضة . وإن قلبك لرؤوف . إذا لم يقصدك المرضى والمهزومون والمحطمون ، فمن غيرك يقصدون ؟ إذا نسينا فاذكرى أنته ! متى يمحى المقدر على ؟ أيرضيك أن جسدى ليس منى ، فما أشعر بالألم وهو ينهشه نهشاً . هاهى روحى على عتباتك تتلوى وتتمرغ مصروعة . تريد أن تفيق . منذ غادرنى رضا الله وأنا كالنائم يركبه الكابوس ، يقبض فى يد واحدة على الموت والحياة ! رضيت لحكمه وأسلمت نفسى ، ولن أضيع وأنت هنا معنا . أفيطول الأمد ، أم رحمة الله قريب ؟ نذرت لك يوم يتوب المولى على أن أزين مقامك الطاهر بالشموع . خمسين شمعة ، ياأم هاشم ياأخت الحسين !

ووضعت الفتاة شفتيها على سور المقام . ليست هذه القبلة من تجارتها ، بل من قلبها . ومن ذا الذى يجزم بأن أم هاشم لم تسع إلى السور وقد هيأت شفتيها من ورائه لتبادلها قبلة بقبلة ؟

هم إسماعيل أن يخرج من المسجد ليلحقها ويكلمها ، فلم تتحرك قدماه . أراد أن يفضى لها بكل ما فى نفسه ، إن لحظة الانتزاع من الأسرة والوطن ، لمواجهة الغربة والوحدة والمجهول

تثير أعصابه وتهزه إليه ، ولماذا يهتز لمرآها دون سائر النساء ؟ أولم ير ؟
إلا أن صوتا خفياً يريد أن ينطق فى قلبه ويتكلم ويرشده إلى السر
ولكن هناك ألف غطاء وغطاء تكتم هذا الصوت وتخنقه ، ولعل
الفتاة لم تره ولم تشعر به . وهرب إسماعيل من حيرته إلى الشيخ درديرى
وحديثه الثرثار يتنزل بلسما على فؤاده : وقفته فى صمت أمام المقام
وتحت ضوء القنديل ، ويده معلقة بالسور تارة ، ماسحة على
وجهه تارة أخرى ، هى آخر ما يذكره عن رحيله من القاهرة .
فكل ما حدث له بعد خروجه من المقام شمله من أخمص قدميه
إلى رأسه ، كالتيار المندفع العنيف ، يتأرجح فيه ملقى القياد ،
مقلوب الوضع ، فقد خلاله الزمن ترتيبه ، والمرئيات اعتدالها ،
والأصوات صدقها وفروقها . وداع الأسرة ، وما أمره ! فى
الدار وسط النحيب والبكاء ، والمحطة ، والقطار ثم الميناء وحركته
والباخرة المجهولة وصفيرها : إنى أتخيله صاعدا سلم الباخرة شاباً عليه وقار
الشيوخ ، بطىء الحركة ، غرير النظرة ، أكرش ، ساذجاً ،
كل ما فيه ينبىء أنه قروى مستوحش فى المدينة . أقسم لى عمى
إسماعيل فيما بعد أنه كان يحمل فى أمتعته قبقاباً ، فقد سمع الشيخ
رجب أن الوضوء فى أوربا متعذر لاعتياد الناس لبس الأحذية فى
البيوت ، كما وصف لى وهو يبتسم سراويله وطولها وعرضها
وتكتها المحلاوى ، وكان معه أيضا سلة ملأى بالكعك و (المنين)
من عمل أمه وفاطمة النبوية

وسافرت الباخرة ،

٦

ومرت سبع سنوات ، وعادت الباخرة :

من هذا الشاب الأنيق السمهرى القامة ، المرفوع الرأس ، المتألق الوجه ، الذى يهبط سلم الباخرة قفزاً ؟ هو والله إسماعيل بعينه . أستغفر الله ! هو الدكتور إسماعيل ، المتخصص فى طب العيون ، والذى شهدت له جامعات انجلترا بالتفوق النادر ، والبراعة الفذة ، كان أستاذه يمزح معه ويقول له :

— أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فيك يامستر إسماعيل . إن بلادك فى حاجة إليك ، فهى بلد العميان .

رأى فيه دراية كأنها ملهمة ، وصفاء هو سليل نضج أجيال

طويلة ، ورشاقة أصابع هي وريثة الأيدي التي نحتت من الحجر الصلد دمى تكاد تحيا .

أقبل يا اسماعيل فإنا إليك مشتاقون . لم نرك منذ سبع سنوات مرت كأنها دهور . كانت رسائلك المتوالية ، ثم البراقية ، لاتنفع في إرواء غلتنا ، أقبل إلينا قدوم العافية والغيث ، وخذ مكانك في الأسرة ، فستراها كالآلة وقفت بل صدئت لأن محركها قد انتزع منها . آه ! كم بذلت هذه الأسرة لك . فهل تدري ؟

لم ينم إسماعيل ليلة الوصول إلا غراراً . قفز إلى ظهر الباخرة مع الفجر يريد ألا يفوته أول ما يبدو من شاطىء الإسكندرية لايرى شيئاً على الأفق ، ولكن خياشيمه تتشمم في النسيم رائحة لم يألفها من قبل . أول من لقيه من وطنه ، مخلوق الكون كله وطنه ، طائر أبيض منفرد يحوم حول السفينة ، طليق متعال نظيف ، وحيد . لماذا تتعمد البواخر كل هذا التلكؤ عند الوصول ، وما كان أسرعها عند الفراق ؟ إنها تتهادى بدلال العودة ، فما لها وللركاب وما يشعرون . كتم إسماعيل عن أهله موعد الباخرة حتى لايكلفوا أباه الشيخ مشقة السفر للإسكندرية في عزمه أن يبرق إليهم بموعد وصول قطاره للقاهرة : هذا هو الفنار المتسلق وهذا هو الشاطىء الأصفر يكاد يكون في مستوى الماء أنت يامصر راحة ممدودة إلى البحر لاتفتر إلا بانبساطها . ليس أمامك حواجز من شعاب خاتلة ، ولا على شاطئك جبال تصد ، أنت دار كل

ما فيها يوحي بالأمان . . ها هو أول قارب يظهر ، فيه شيخ قد وخط الشيب لحيته ، مقوس الظهر ، أقمى كالقرد فى مقدم قاربه يصطاد ، جلبابه الأزرق ، أو الذى كان أزرق ، ممزق مرقع . وقعت نظرة إسماعيل على سيدة مصرية وقفت بجواره ، فرآها مطلة على الصياد مغرورقة عيناها بالدموع وسمعها تتمتم :

— مصر ! مصر !

كيف ينتبه لها الصياد ، وهو لم ينتبه للباخرة كلها ! مثلها كثيرات داخلات خارجات تكاد تصدم قاربه ، ولكن هيهات لها أن تصدم عالمه المقفل . عالم يجرى على وتيرة واحدة متكررة يوماً بعد يوم . هم إسماعيل أن ينادى هذا الشيخ ويلقى عليه السلام أو يلوح له بمنديل . كيف تسقط المقاييس وينهزم المنطق فى مثل تلك اللحظات التى تتأجج فيها العواطف وتصفو القلوب ! ورن جرس إيذانا بموت الباخرة ، فأصبحت جثتها فريسة لجيش من النمل البشرى بهاجمها . جنود وضباط ، وإخواننا المحتلون ولو أنهم أخلاط مطربشون ، وحمالون وصيارفة وزوار . ثم اندلق الزحام والتدافع ، وتعالت النداءات ، وكثر العناق والتقبيل . وإسماعيل وسط التيار غير مغمور يلتقط بنهم كل ما يصل إليه : وعلى شفتيه ابتسامة حلوة مطمئنة . له أذن فارزة واعية ، ونظرة حية يقظة تريد أن ترى كل شىء ، وتفهم كل شىء . إذا دققت النظر إليه وجدت تكورات وجهه قد زالت ، وشد شدقاه فى أخدودين . كانت شفتاه

مرتخيتين ، قلما تنطبقان . أما الآن فقد ضمهما حزم ووثوق . يجتاز الجمارك . وفى العربة يستمع لوقع عجلاتها بين الأسفلت والبلاط ، فيذكره تنافر النغم وتناوبه بيوم السفر . كم يبدو له هذا اليوم مترديا فى هوة من ماض بعيد . بعيد كالحلم . . . . كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد سبع سنوات قضاها فى إنجلترا قلبت حياته رأسا على عقب ؟ كان عفا غنوى ، صاحيا فسكر ، راقص الفتيات وفسق . هذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدة وطرافة . تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة ويتمتع بغروب الشمس — كأن لم يكن فى وطنه غروب لا يقل عنه جمالا — ويلتذ بلسعة برد الشمال .

إن لم يكن له فى هذه الفترة سوى (مارى) زميلته فى الدراسة لكفى بها فى نسيان ماضيه . لقد أخذ هذا الفتى الشرق الأسمر بلبها فأثرته واحتضنته . عندما وهبته نفسها ، كانت هى التى فضت براءته العذراء ، أخرجته من الوخم والخمول إلى النشاط والوثوق ، فتحت له آفاقا يجهلها من الجمال : فى الفن ، فى الموسيقى ، فى الطبيعة ، بل فى الروح الإنسانية أيضا .

قال لها يوما :

— سأستريح عندما أضع لحياتى برنامجا أسير عليه .

فضحكت وأجابت :

— يا عزيزى إسماعيل : الحياة ليست برنامجاً ثابتاً ، بل مجادلة متجددة .

يقول لها : « تعالى نجلس » ، فتقول له : « قم نسر » . يكلمها عن الزواج ، فتكلمه عن الحب ، يحدثها عن المستقبل ، فتحدثه عن حاضر اللحظة . كان من قبل يبحث دائماً خارج نفسه عن شيء يتمسك به ويستند إليه : دينه وعبادته ، وتربيته وأصولها ، هي منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين . أما هي ، فكانت تقول له : « إن من يلجأ إلى المشجب ، يظل طول عمره أسيراً يجانبه يحرس معطفه . يجب أن يكون مشجبك في نفسك » . إن أخشى ما تخشاه هي : القيود . وأخشى ما يخشاه هو : الحرية . كانت هبتها له في مبدأ الأمر محل حيرته ، فكانت حيرته محل سخريتها . كان يتجافى الناس ويقدر احتمالات ودهم ، ويهتم كيف يكون حكمهم عليه . وإذا نجى من تريثه المجاملة لا يجد بأساً في مجاملته ، وقلبه غير مشارك . التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظافراً أو خاسراً . أما هي ، فتهيم بالناس جميعاً ، ولا تهتم بهم جميعاً . التعارف عندها لقاء ، والود مترك للمستقبل . ومع تساوى ودها للناس جميعاً ، كانت بتارة في إقصاء الضعيف ، والسخيف ، والمتعالم ، والرذل ، والحزين ، والمنافق . فلما تخلصت من هذه الأوشاب ، أصبحت لا ينجذب إليها إلا من تطمئن لصحبتهم .

رأته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، ويخص بعطفه

دون يلاحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول — وما أكثرهم في أوربا . يجلس صامتاً ينصت لشكواهم ، وكان أكبر كرم منه أن يعاشي منطقه منطقهم المريض . لحظته (مارى) وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبثون به . كل يطليه لنفسه . فأقلقت وأيقظته بعنف :

— أنت لست المسيح بن مريم ! « من طلب أخلاق الملائكة طلبت أخلاق البهائم ! » و « الإحسان أن تبدأ بنفسك » . هؤلاء الناس غرقى يحثون عن يد تمد إليهم ، فإذا وجدوها أغرقوها معهم ! إن هذه العواطف الشرقية مرفولة مكروهة ، لأنها غير عملية وغير منتجة ، وإذا جردت من النفع ، لم يبق إلا اتصافها بالضعف والهوان ، إنما هذه العواطف قوتها في الكتمان لا في البوح !

كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها . كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حية يتغذى منها ، إذ توصله بمن حوله . واستيقظ في يوم فإذا روحه خراب لم يبق فيها حجر على حجر . بدا له الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير والنفس البشرية لا تجد قوتها ، ومن ثم سعادتها ، إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها . أما الاندماج فضعف ونقمة .

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذى وجد نفسه غريقاً وحيداً في خلائه ، فمرض وانقطع عن الدراسة ، واعتراه نوع

من القلق والحيرة ، بل بدت فى نظرته أحياناً لمحات من الخوف والذعر .

وكانت (مارى) هى التى أنقذته : أخذته فى رحلة إلى الريف بالكاتانة ، يجولان بالنهار مشياً أو على النراجة بين الحقول أو يصطادان السمك ، وبالليل تذيقه من محنة الحب أشكالا وألوانا . من حسن حظه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التى يتوهى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب فى أوربا ويخلص منها بنفس مطمئنة مستقرة ثابتة واثقة . إن اطمأنت الاعتقاد فى الدين فإنها استبدلت إيمانا أشد وأقوى بالعلم . لا يفكر فى جمال الجنة وفسيحها ، بل فى بهاء الطبيعة وأسرارها . ولعل أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة (مارى) عليه . أصبح لا يجلس بين يديها جلسة المريد أمام القطب ، بل جلسة الزميل إلى زميله . لم يدهش ، ولم يتألم كثيراً ، عندما رآها تبتعد عنه وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها : إنها ككل فنان يمل عمله حين يتم . شفى إسماعيل فقد كل سحره ، وأصبح كغيره ممن تعرفهم : فلتجرب إذا صديقها الجديد . . . على أن إسماعيل لم يقو على مغادرة انجلترا دون أن يسعى إلى لقائها لآخر مرة . دعاها فلم ترفض دعوته . ولم يسأل نفسه : أعلى علم من صديقها الجديد أم على غفلة منه ؟ ووهبت له نفسها مرة أخرى ، فهذه العلاقة ليست

عندها بلغت بال ولاخطر. كانت ضمتها له نوعاً من المصافحة وسلام الوداع ،

وهتفت به وهى تنصرف على دراجتها :

ـ آمل أن أراك فى مصر يوماً من الأيام . ومن يدرى ؟ فإلى اللقاء إذاً ، ولا أقول وداعاً ،

نساء العصر الحديث ! كم ذا يواجهن الاحتمالات بقلوب ثابتة . شجرة الحياة أمامهن مثقلة بالثمر منوعته . لهن شهية مفتوحة فلم التأسى والبكاء على ثمرة ، والشجرة مفعمة ؟

٧

والظاهرة العجيبة التى لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل أفاق من حبه (لمارى) فوجد نفسه فريسة حب جديد . ألأن القلب لا يعيش خالياً ؟ أم أن (مارى) هى التى نبهت غافلا فى قلبه فاستيقظ وانتعش ؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعوراً مبهماً ، هو كذرة الرمل اندمجت فى الرمال واندست بينها ، فلا تميز منها ، ولو أنها مع ذلك منفصلة عن كل ذرة أخرى . أما الآن فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة فى سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطاً إلى وطنه . فى ذهنه مصر عروس الغابة التى لمستها ساحرة خبيثة بعصاها

فنامت (١) ؛ عليها الحلى ، و (دواق) (٢) ليلة الدخلة .
لارعى الله عيناً لم ترجمالها ، ولا أنفاً لا يشم عطرها ! متى تستيقظ؟
متى ؟ وكلما قوى حبه لمصر ، زاد ضجره من المصريين . ولكنهم
أهله وعشيرته ، والذنب ليس ذنبهم . هم ضحية الجهل والفقر
والمرض والظلم الطويل المزمن . إنه حدق فى الموت مراراً ، وجس
المجذوم ، واقترب فمه من فم المحموم . ترى هل ينكص الآن
عن لمس هذه الكتلة البشرية التى لحمه من لحمها ودمه من دمها ؟
قد عاهد نفسه فى حبه لمصر ألا يرى منكراً إلا دفعه ؛ علمته
(مارى) كيف يستقل بنفسه ، وهيهات لم بعد ذلك أن يجرعوه
خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم . ليس عبثاً أن عاش فى أوربا
وصلى معها للعلم ومنطقه ؛ علم أن سيكون بينه وبين من يحتك بهم
نضال طويل ، ولكن شبابه هون عليه القتال ومتاعبه . بل كان
يتشوق إلى المعركة الأولى ؛ وسرح ذهنه فإذا هو كاتب فى الصحف
أوخطيب فى أحد المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته ؛

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته ، لا يدرى لماذا
ضعف عن لقائهم بالمحطة وسط الضجيج والضوضاء وعلى أعين
الناس ، وربكة المتاع . إنه يود أن يلقى أعزاءه فى دارهم ، وعلى

(١) اشارة الى اسطورة أوربية شائعة .. بقيتها أن تلك العروس لا يوقظها من سباتها السحرى سوى مقدم أمير جميل يعشقها .

(٢) زينة من الترتر توضع على طرحة العروس البيضاء .

نجوة من الغرباء . ولم يقدر وقع المفاجأة على أبيه وأمه العجوز . ذكرهما فوجف قلبه : هل يستطيع أن يؤدى لهما بعض ماهو مدين به ؟ إنه قادم مزود بنفس السلاح الذى أراده له أبوه ، وسيشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف . وسيعرض عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة فى أرق أحياء القاهرة . وسيدهش القاهريين أولا ثم المصريين جميعاً بما أتقنه من فن واكتسبه من خبرة . فإذا تدفق عليه المال أعفى أباه الشيخ من العمل ، واشترى له أرضاً فى بلدهم ليعيش مستريحاً . ثم وجم إسماعيل : لقد تذكر أنه لم يأت معه من أوربا بهدية لأسرته ، وسرى عنه إذ قال لنفسه :

ـــ ماذا فى أوربا كلوا يصلح لأبى وأمى ؟

وفاطمة النبوية ؟ ذكراها تثير فى نفسه بعض الاضطراب لم يزل مرتبطاً بوعده ، ولقد عاد حراً ، فلا عذر له إذا اعتذر هذه مسألة معقدة فلنتركها للمستقبل .

وأطل من النافذة فرأى أمامه ريفاً يثرى كأنما اكتسحته عاصفة من الرمل ، فهو مهامه قفر متخرب . الباحة على المحطات فى ثياب ممزقة ، تلوث كالحيوان الطائر ، وتتصبب عرقاً .

ولما سارت العربة من المحطة ، ودخلت شارع الطابية الضيق الذى لا يتسع لمرور الترام ، كان أول ما يصدمه أمران هما :

قذارة وذباب ، وفقر وخراب ، فانقبضت نفسه ، وركبه الوجوم والأسى ، وزاد لهيب الثورة فى قرارة نفسه ، وزاد التحفز .

ووقف أمام البيت ، وتناول مطرقته ، وتركها تسقط ؛ فاختلطت دقتها بدقات قلبه . سمع صوتاً رقيقاً ينادى بلهجة نساء القاهرة :

ـــ مين ؟

ـــ أنا إسماعيل ! افتحى يا فاطمه !

٨

يا اسماعيل: ما أقساك ! وما أجهل الشباب !

كادت أمه يغمى عليها ، وانعقد لسانها وهى تضمه وتقبل وجهه ويديه ، تشهق وتبكى . يالله ! كم شاخت وتهدلت وضعف صوتها وبصرها ! إن الغائب فى وهم ، يتوقع أن يعود لأحبابه فيجدهم كما تركهم منذ سنوات . صوت يهمس فى قلبه :

ـ ليست لها من الشخصية نصيب ! ليست إلا كتلة من طيبة سلبية .

وجاءه أبوه تفيض عليه ابتسامة هادئة . اشتعل شيبه وإن لم تنحن قامته . فى عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر ، من راحة

ضمير وضمور باطني ثقيل . سيعلم إسماعيل فيما بعد أن الأزمة كونته بنارها فانكمشت أموره ، ومع ذلك لم يتأخر في يوم ما عن موعد إيداع النقود بالبنك لابنه . لم يذكر لإسماعيل ما يعانيه أو يدعوه إلى الاقتصاد أو يستعجله للعودة : يلهو اسماعيل في أسكتلندة مع رفيقته ، يأكل البفتيك ، وأبوه قعيد داره ، عشاؤه طعمية أو فجل .

لاسماعيل نظرة من طرف عينيه تطوف في الدار ، فاذا هي أضيق أوشد ظلمة مما كان يذكر . أما يزال ضوؤهم من مصباح البترول ؟ قطع الأثاث بالية متناثرة تبدو — رغم مر السنين وطول الصحبة — كأنها مهاجرة في دار غربة ، ولماذا هم على البلاط وأين البساط ؟

هذه أم محمد ترتيك كعادتها بين الأطباق والحلل وهي تزغرد فيزجرها ويقول لها :

— بس بلاش خوته ، ياوليه اعقلي .

ولكن أين فاطمة النبوية ؟ أقبلت ، فاذا أمامه فتاة في شرخ الصبا : ضفيرتاها ، وأساورها الزجاجية الرخيصة ، وحركاتها ، وكل ما فيها وما عليها ، يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف : هل هذه هي الفتاة التي سيتزوجها ؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده وينكث عهده : وما لها معصوبة العينين ؟ فهي ترفع ذقنها لتستطيع

أن ترى وجهه . لم يدعها الرمد منذ سافر وساء حالها يوماً بعد يوم .

وأعد العشاء وجلسوا ، ولعلهم جلسوا من أجله حول مائدة لهم من الخشب الأبيض ، لم يأكل عليها أحد . لم يأكلوا هم من حدة الفرح ، ولم يأكل هو من صدمة اليقظة . اعترف لى إسماعيل فيما بعد بأنه — حتى فى اللحظة التى كان يجب أن تشغله سعادة العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد — لم يملك نفسه عن التساؤل ! كيف يستطيع أن يعيش بينهم ؟ وكيف يجد راحته فى هذه الدار ؟

وأعد الفراش ، وأبى الشيخ وجب إلا الانصراف إلى غرفته ليترك ابنه يستريح من عناء السفر . وهذه أمه تجذب نفسها جذباً وتهم بتركه ، ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول :

— تعالى يافاطمة ، قبل أن تنامى ، أقطر لك فى عينيك .

ورأى إسماعيل أمه وفى يدها زجاجة صغيرة ، وترقد فاطمة على الأرض وتضع رأسها على ركبة الأم ، فتسكب من الزجاجة فى عينيها سائلا تتأوه منه فاطمة وتتألم .

سألها إسماعيل :

— ما هذا يا أمى ؟

— هذا زيت قنديل أم هاشم ، تعودت أن أقطر لها منه كل مساء .

لقد جاءنا به صديقك الشيخ دردير ى . إنه يذكرك ويتشوق إليك .هل تذكره ؟ أم تراك نسيته ؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع . أليس من العجيب أنه — وهو طبيب عيون — يشاهد فى أول ليلة من عودته ، بأية وسيلة تداوى بعض العيون الرمداء فى وطنه ؟ . . .

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها ، وحل رباطها ، وفحص عينيها ، فوجد رمدا قد أتلف الجفنين وأضر بالمقلة ، فلو وجد العلاج المهدىء المسكن لتماثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكاوى .

فصرخ فى أمه بصوت يكاد يمزق حلقه :

— حرام عليك الأذية . حرام عليك . أنت مؤمنة تصلين فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها ، تحاول أن تتمتم ولا تبين.

ورأى إسماعيل شيخ أبيه على الباب ، فى جلباب أبيض قصير وعلى رأسه طاقية تحتها وجه مربد. هل يتوقع قلبه الحنون مكروهاً ؟ ماذا ؟ لعل فى تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما أيقظ فى نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة .ما هذا الصراخ ؟ ماذا حدث ؟

ونطقت أمه أخيراً تستعيذ بالله وتقول له :

ـ اسم الله عليك ياإسماعيل يابنى . ربنا يكملك بعقلك هذا غير الدوا والأجزا . هذا ليس إلا من بركة أم هاشم .

وإسماعيل كثور هائج لوحت له بغلالة حمراء .

ـ أهى دى أم هاشم بتاعتكم هى اللى ح تجيب للبنت العمى ستروت كيف أداويها فتنال على يدى أنا الشفاء الذى لم تجده عند الست أم هاشم .

ـ يابنى ده ناس كثير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجز جربوه وربنا شفاهم عليه . إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم .ده سرها باتع .

ـ أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت .

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور . فى هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد ، وصدى الأذان . كأنها جميعاً استيقظت وانتبهت ، ثم أطرقت وانطفأت ، وحل محلها ظلام ورهبة . . . لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التى جاءت لهم من وراء البحار .

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق :

ـ ماذا تقول ؟ هل هذا كل ما تعلمته فى بلاد يره ؟ كل ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافراً ؟

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبي القديم قد عاوده فجأة ، وانفجر بشدة من جديد : فقد وعيه وشعر بحلقه يجف ، وبصدره يشتعل ، وبرأسه يموج فى عالم غير هذا العالم : شب على قدميه واقفاً : لاشك أن فى نظرته ما يخيف ، فقد تضاءلت الأم أمامه وابتعد الأب عن طريقه . هجم إسماعيل على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجة ، فتشبثت بها لحظة ثم تركتها له . فأخذها من يدها بشدة وعنف ، وبحركة سريعة طوح بها من النافذة :

وكان صوت تحطمها فى الطريق كدوى القنبلة الأولى فى المعركة :

ووقف إسماعيل حائراً لحظة ، له نظرة تجوب ما حوله وتنتقل من وجه أمه وفاطمة إلى وجه أبيه : وجد إشفاقاً وعطفاً ولم يجد تسامحاً وفهماً . ربما استشف فى نظرتهم بعض الرعب فتزايد هياجاً وانطلق إلى الباب . وفى طريقه وجد عصا أبيه فأخذها ثم هرب من الدار جرياً . لن ينكص عن أن يطعن الجهل والخرافة فى الصميم طعنة نجلاء ـ ولو فقد روحه :

٩

اشرف على الميدان فإذا به يموج كدأبه بخلق غفير ضربت عليهم المسكنة ، وثقلت بأقدامهم قيود الذل . ليست هذه كائنات حية تعيش فى عصر تحرك فيه الجماد . هذه الجموع آثار خاوية محطمة كأعقاب الأعمدة الخربة ، ليس لها ما تفعله إلا أن تعثر بها أقدام السائر : ما هذا الصخب الحيوانى ؟ وما هذا الأكل الوضيع الذى تلتهمه الأفواه ؟ يتطلع إلى الوجوه فلا يرى إلا آثار استغراق فى النوم كأنهم جميعاً صرعى أفيون . لم ينطق له وجه واحد بمعنى إنسانى . هؤلاء المصريون : جنس سمج ثرثار أقرع أمرد ، عار حاف ، بوله دم ، وبرازه ديدان . يتلقى الصفعة

على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر ؟ قطعة (مبرطشة) من الطين أمنت فى الصحراء ، تطن عليها أسراب من الذباب والبعوض ، ويغوص فيها إلى قوائمه قطيع من الجاموس نحيل . . . يزدحم الميدان ببائعى اللب والفول ، وحب العزيز ، ونبوت الغفير ، والهريسة والسمبوسكة ، بمليم الواحدة . فى جنباته مقاه كثيرة على الرصيف بجوار الجنزران ، قوامها موقد وإبريق وجوزة . أجساد لم تعرف الماء سنين . الصابون عندها والعنقاء سواء . تمر أمامه فتاة مزججة الحواجب ، مكحلة العينين ، شدت ملاءتها لتبرز عجيزتها وطرف ثوبها ، وتحجبت ببرقع يكشف عن وجهها . وما معنى هذه القصبة التى تضعها على أنفها ؟ أف ! ما أبشع رياء هذا المنظر وما أقبحه ! سرعان ما بدأ الناس يتحككون بها كأنهم كلاب لم يروا فى حياتهم أنثى ! هنا جمود يقتل كل تقدم وعدم لا معنى فيه للزمن ، وخيالات المخدر ، وأحلام النائم والشمس طالعة . . .

لو استطاع إسماعيل لأمسك بذراع كل واحد منهم وهزه هزة عنيفة وهو يقول :

— استيقظ . استيقظ من سباتك وأفق ، وافتح عينيك . ما هذا الجدل فى غير طائل ؟ والشقشقة والمهاترة فى سفاسف ؟ تعيشون فى الخرافات ، وتؤمنون بالأوثان ، وتحجون للقبور وتلوذون بأموات !

وعثرت قدمه بطفل ملقى على الرصيف ، والتف حوله جموع من الشحاذين يعرضون عليه عاهات يرتزقون منها رزقاً حلالا . كأنها من نعم الله عليهم ، أو مهن وصناعات .

وشعر إسماعيل بأن هذه الجموع أشلاء ميتة تطبق على صدره وتكتم أنفاسه ، وتبهظ أعصابه . يصطدم به بعض المارة كأنهم عمى يتخبطون . هذا الرضا عجز ، وهذه الطيبة بلاهة ، وهذا الصبر جبن ، وهذا المرح انحلال .

انقلت إسماعيل من الزحام ، وجرى إلى الجامع ودخله واجتاز الصحن إلى الحرم . المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة من عطور البرابرة . هذا هو القنديل قد علق التراب بزجاجه واسودت سلسلته من (هبابه) . تفوح منه رائحة احتراق خانقة . أكثر ما ينبعث منه دخان لا يصيص ضوء . هذا الشعاع إعلان قائم للخرافة والجهل . يحوم فى سقف المقام خفاش اقشعر له بدنه . حول المقام أناس كالخشب المسندة وقفوا مشلولين متشبثين بالأسوار . فيهم رجل يستجدى صاحبة المقام شيئاً لم يفهمه إسماعيل وإنما وعى أنه يستعديها على خصم له ، ويسألها أن تخرب بيته وتيتم أطفاله . والتفت إسماعيل إلى ركن فى المقام فوجد الشيخ حديرى يناول رجلا معصوب الرأس بمنديل نسائى زجاجة صغيرة فى حرص وتستر . كأنما هى بعض المهربات . لم يملك

إسماعيل نفسه . . . فقد وعيه ، وشعر بطنين أجراس عديدة وزاغ بصره ، ثم شب ، وأهوى بعصاه على القنديل فحطمه وتناثر زجاجه ، وهو يصرخ :

ـ أنا . . . أنا . . . أنا . . . (١)

ثم لم يستطع أن يتم جملته . (ومن يدرى ماذا كان سيقول ؟) هجمت عليه الجموع ، وتهدمت فوقه ، فخر على الأرض مغمى

---

(١) مكثت أكثر من أسبوع أبحث عن الكلام الذى ينبغى أن ينطق به اسماعيل فى هذا الموقف ، وقد أحسست أنه يجب ألا يزيد عن لفظ واحد ، اذ ليس من المعقول أن ينطق بجملة طويلة وهو فى تلك الحال ، وأردت أن يكون هذا اللفظ معبرا عن الأنين وعن الرغبة فى البوح .. وفى الاستعطاف .. وفى تأكيد الانتماء .. وبينما أنا حائر فى البحث عن الكلمة المناسبة اذ تذكرت نصا كنت قرأته عن حياة الفيلسوف الألمانى « نيتشة » وبقى منه فى ذهنى أنه حين أصيب بلوثة الجنون هبط من بيته الذى كان يقع فوق قمة جبل مرتفع وهو يصرخ : « أنا .. أنا .. أنا » .

عندئذ أدركت أن هذه هى الكلمة التى كنت أبحث عنها ، لأنها تجسد كل المعانى التى طلبتها ، خاصة وأن حرف النون فيه نغمة الأنين .

ولعل الذى قادنى الى تذكر هذا النص أن اسماعيل فى هذا الموقف كان هو الآخر قريبا من الجنون .

وهكذا يتأكد اعتقادى بأن الذى يضفى على النص الأدبى قدرا من قيمته هو اشاراته الخفية الى أعمال أدبية أخرى ممتازة ، فكأن للأدب كيانا متكاملا اشترك فى تشييده كل من سبقونا ومن يعاصروننا من كبار الكتاب فى كل اللغات .

وأرجو أن ترجع فى ذلك الى مقال «لمن يكتب الكاتب؟» فى كتابى «أنشودة للبساطة » . (ى.ح.)

(١٩٧٤/٥/٢)

عليه . ضربوه ، وداسوه بالأقدام ، وجرح رأسه ، وسال الدم على وجهه ، ومزقت ثيابه .

علمنا بعد ذلك أنه أشرف على الموت تحت الأقدام لولا أن تعرف عليه الشيخ دردير ، فأنقذه واستخلصه من غضب الناس وعنفهم وهو يقول :

ـ اتركوه ! إنني أعرفه . هذا سي إسماعيل ابن الشيخ رجب من حارتنا . اتركوه . ألا ترون أنه (مريوح) .

واحتمله إلى الدار ، ووضعوه على الفراش ، واجتمعت الأسرة في ليلة الفرح بعودته تبكي صوابه المفقود .

لعن الله اليوم الذي سافرت فيه يا إسماعيل ؟ ليتك ظللت بيننا ولم تفسدك أوربا فتفقد صوابك ، وتهين أهلك ووطنك ودينك .

صمتت الأم وجهها ، وتأوه الأب وكتم ألمه وغيظه وسكبت فاطمة دموعها مدرارا .

١٠

ومرت أيام كثيرة وإسماعيل لايغادر الفراش . ركبه العناد فأدار وجهه للجدار لا يكلم أحداً ولا يطلب شيئاً . ولما أفاق قليلا بدأ يفكر : هل يعود إلى أوربا ليعيش وسط أناس يفهمون الحياة ؟ إن الجامعة عرضت عليه منصب مساعد أستاذ فرفضه بغباوة ولعلهم يقبلونه الآن إذا طلب . ولم لا يتزوج هناك ، ويبنى لنفسه أسرة جديدة بعيداً عن هذا الوطن المنكود ؟ لماذا ترك إنجلترا بريقها الجميل ، وأمسياتها الهنية ، وقسوة شتائها الجبار ، وجاء ليلقى يفرون فيه من بعض الرذاذ كأنما تحيق بهم نكبة أو يدهمهم طوفان ؟ أما يدرون أن هناك وجوهاً صامتة ونظرة ثابتة ،

تستر تحت المطر والثلوج ، تقاوم الأعاصير ؟ وما فائدة الجهاد فى بلد كمصر ومع شعب كالمصريين ، عاشوا فى الذل قروناً طويلة فتلذاوقوه واستعذبوه ؟

ثم أخذته غفوة ، واختلط عليه الأمر . إنه كالطير قد وقع فى فخ ، وأدخلوه القفص ، فهل له من مخرج ؟ يشعر بجسمه وقد شد إلى هذه الدار التى لا يطيقها ، وربط إلى هذا المدان الذى يكرهه ، فمهما حاول فلن يستطيع فكاكا .

واستيقظ إسماعيل ذات صباح وهو يشعر بنشاط عجيب ؛ فى مثل هذه الأحوال يقفز الشخص من النقيض إلى النقيض فجأة وبلا سبب ظاهر . وخرج من الدار مبكراً ، وعاد يحمل حقيبة ، ملأى بالزجاجات والأربطة والمزاود ، وبدأ علاجه لفاطمة كما يقتضيه طبه وعلمه. لقد عالج فى أوربا أكثر من مائة حالة مثلها فلم يخنه التوفيق فى واحدة . فلماذا لا ينجح مع فاطمة أيضا ؟ وسلمت الفتاة إليه نفسها مطمئنة ، لا يهمها مرضها بقدر ما يهمها أن تكون بين يديه، موضع عنايته ورفقه . وتجنبه أبوه وأمه ولم يعودا يعارضانه فى شىء إشفاقاً على صحته .

فى الصباح تجلس فاطمة بين يديه وقبل النوم . ومريوم وثان وثالث ورابع ، وأسبوع وآخر ، وعيون فاطمة على حالها ثم إذا بها تسوء فجأة وتلتهب ، ويختلط سوادها بالبياض .

ضاعف إسماعيل عنايته ، وكرر أنواع الأدوية ، وقلب جفونها وعس ، وقطر ومرهم ، وكشط ومسح ، فما أجدى طبه نفعاً إنه ليس بالجاهل ، يرى أمامه فاطمة اقتربت من العمى ولا ينقذها فى علمه حيلة .

أخذها إلى زملائه فى كلية الطب ، وعرضها على الأساتذة فوافقوه على طريقته فى العلاج ، ونصحوه بالاستمرار .

فقاوم وثابر . . . وأخيراً استيقظت فاطمة على صباح وهى تفتح عينيها ولا ترى . . . لقد انطفأ آخر بصيص تتعزى به .

١١

هرب إسماعيل من الدار، لم يستطع الإقامة فيها وفاطمة أمامه ، وعماها دليل على عماه . عيون أبيه وأمه تلومانه . ما الذى حدث ؟ لماذا أخفق ؟ إنه لا يفهم شيئاً . أين يذهب ؟ لم يبدأ بعد عملا ، ولا هو بقادر ولا راغب فى الالتجاء للحكومة لتعيينه فى إحدى القرى النائية . باع كتبه وبعض الأدوات التى أحضرها معه من أوربا ، وسكن فى غرفة ضيقة فى بنسيون مدام إفتاليا وهى سيدة يونانية بدينة أخذت تستغله منذ أول وقوعه فى يدها حتى لتكاد تضع فى كشف الحساب تحية الصباح، أو تستقضيه خطوتها إذا قامت وفتحت له الباب حاسبته مرة على قطعة سكر استزادها

فى إفطاره . يحس بابتسامتها أصابع تفتش جيوبه : أهداها بعض الفطائر والسجائر فأخذتها نهمة متلهفة ، وفى الصباح سألته أن لايطيل السهر فى غرفته حرصاً على الكهرباء. لا شك أن الإفرنج فى مصر من طينة أخرى غير التى رآها فى أوربا . كان يحبس نفسه فى غرفته ، فطردته هذه العائلة إلى الشوارع يجوبها من الصباح إلى منتصف الليل . وفى كل ليلة يجد نفسه — ولا يدرى كيف — وسط ميدان السيدة يجوب حول داره ، يتطلع إلى نوافذها ، يريد أن يرى وجه فاطمة أو يسمع صوتها . فاطمة ضحيته ، ومع ذلك لم تثر . . . لم تشك . . . لم تلمه . أسلمت إليه نفسها عن رضى فأوردها التلف ، فما قالت لذابحها تريث... وهكذا يظل واقفاً فى الميدان ، ساعات طويلة ، سارح الذهن شارد اللب ، تتسرب إلى أذنه النداءات القديمة . هى هى لم تتغير ؛ ماذا ؟ لعل كل والد أورث ابنه مهنته وصوته وموضعه فى الميدان : مساكين ! كل من خدمهم من عليهم واستعجلهم الجزاء أضعافاً مضاعفة . لم يخدمهم أحد لله أو حباً فيهم ، ومع ذلك جروا وراء كل من توهموا فيه الإخلاص وتشبثوا بأذياله ورفضوا أن يرواضعفه أو خيانته . هذا شعب شاخ فارتد إلى طفولته . لو وجد من يقوده لقفز إلى الرجولة من جديد فى خطوة واحدة فالطريق عنده معهود والمجد قديم ، والذكريات باقية .

تساءل إسماعيل: هل فى أوربا كلها ميدان كالسيدة زينب ؟

هناك أبنيه ضخمة جميلة، وفن راق ، وأناس وحيدون فرادى، وقتال بالأظافر والأنياب، وطعن من الخلف واستغلال بكل الوسائل . مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانتهاء النهار يروحون بها عن أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو . .

ولكن . لا . لا . . لو أسلم نفسه لهذا المنطق لأنكر عقله وعلمه . من يستطيع أن ينكر حضارة أوربا وتقدمها ، وذل الشرق وجهله ومرضه؟ لقد حكم التاريخ ولامرد لحكمه ، ولاسبيل إلى أن ننكر أننا شجرة أينعت وأثمرت زمنا ثم ذوت .

يفر إسماعيل من الميدان إلى غرفته ، ويقضى ليلته يفكر كيف يهرب لأوربا من جديد ، ولكنه لايلبث أن يعود إلى موقفه المعهود بميدان السيدة فى مساء الليلة التالية .

١٢

وجاء رمضان فما خطر له أن يصوم . ابتدأ يطيل وقفته فى الميدان ويتدبر : فى الجو ، فى الهواء ، فى المخلوقات ، فى الجمادات كلها شىء جديد لم يكن فيها من قبل . كأن الوجود خلع ثوبه القديم واكتسى جديداً . علا الكون جو هدنة بعد قتال عنيف.

يحدث إسماعيل نفسه : لماذا خاب ؟ لقد عاد من أوربا بجعبة كبيرة محشوة بالعلم ، عندما يتطلع فيها الآن يجدها فارغة ، ليس لديها على سؤاله جواب . هى أمامه خرساء ضئيلة ، ومع خفتها فقد رآها ثقلت فى يده فجأة .

ودار بعينيه فى الميدان . وتريثت نظرته على الجموع فاحتملتها

وابتدأ يبتسم لبعض النكات والضحكات التى تصل إلى سمعه فتذكره هى والنداءات التى يسمعها بأيام صباه . . . ما يظن أن هناك شعبا كالمصريين حافظ على طابعه وميزته رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين . (ابن البلد) يمر أمامه كأنه خارج من صفحات (الجبرتى) . أطمأنت نفس إسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضا صلبة . ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى ، بل شعب بربطه رباط واحد : هو نوع من الإيمان ، ثمرة مصاحبة الزمان والنضج الطويل على ناره . وعندئذ بدأت تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل . هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة والسلاح مغمد. وهناك نشاط فى قلق وحيرة، وجلاد لايزال على أشده والسلاح مسنون . ولم المقارنة ؟ إن الحب لا يقيس ولا يقارن وإذا دخلت المقارنة من الباب ، ولى الحب من النافذة .

وحلت ليلة القدر . . فانتبه لها إسماعيل ، ففى قلبه لذكراها حنين غريب . ربى على إجلالها والإيمان بفضائلها ، ومنزلتها بين الليالى ، لايشعر فى ليلة أخرى — حتى ولا ليالى العيد — بمثل ما يشعر به من خشوع وقنوع لله . هى فى ذهنه غرة بيضاء وسط سواد الليالى . كم من مرة رفع فيها بصره إلى السماء فبهره من النجوم جمال لايراها تنطق به بقية العام .

وغاب لحظة عن أفكاره ، فإذا به ينتبه على صوت شهيق

وزفير عميقين يجوبان الميدان . هذا هو سيدى العريس ولاريب رفع بصره . القبة فى غمرة من ضوء يتأرجح يطوف بها . انتفض إسماعيل من رأسه إلى أخمص قدميه . أين أنت أيها النور الذى غبت عنى دهراً ؟ مرحبا بك ! لقد زالت الغشاوة التى كانت ترين على قلبى وعينى . وفهمت الآن ما كان خافياً على . لاعلم بلا إيمان . إنها لم تكن تؤمن بى ، إنما إيمانها ببركتك أنت وكرمك ومنك . ببركتك أنت ياأم هاشم .

ودخل إسماعيل المقام مطأطىء الرأس فأبصره يرقص عليه ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه ، والشيخ دردير يتناولها واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون ، جعدة الشعر. هى نعيمة !! قد زال انطباق شفتيها وبدت لها أسنان . وإن تكلمت فصف من أسنان بيض كاللؤلؤ . تكفى النظرة إليها أن تنسى وجود كل قبيح .

لقد صبرت وآمنت ، فتاب الله عليها ، وجاءت توفى بنذرها بعد سبع سنوات . لم تقنط ، ولم تثر ، ولم تفقد الأمل فى كرم الله .

أما هو — الشاب المتعلم ، الذكى المثقف — فقد تكبر وثار وتهجم وهجم ، وتعالى فسقط .

ورفع إسماعيل بصره ، فإذا القنديل فى مكانه يضىء كالعين

المطمئنة التى رأت ، وأدركت ، واستقرت. خيل إليه أن القنديل وهو يضيء ، يومىء إليه ويبتسم .

وجاءه الشيخ دردير يسأله عن صحته وأخباره ، فيميل عليه إسماعيل يقول :

ـ هذه ليلة مباركة ياشيخ دردير ، أعطنى شيئا من زيت القنديل .

ـ والله انت بختك كويس . دى ليلة القدر ؟ وليلة الحضرة كمان .

وخرج إسماعيل من الجامع وبيده الزجاجة وهو يقول فى نفسه للميدان وأهله :

ـ تعالوا جميعاً إلى ! فيكم من آذانى ، ومن كذب على ، ومن غشنى ، ولكنى رغم هذا لايزال فى قلبى مكان لقذارتكم وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم منى وأنا منكم ، أنا ابن هذا الحى أنا ابن هذا الميدان . لقد جار عليكم الزمان ، وكلما جار واستبد ، كان إعزازى لكم أقوى وأشد .

ودخل الدار ونادى فاطمة :

ـ تعالى يافاطمة ! لاتيأسى من الشفاء . لقد جئتك ببركة أم هاشم ! ستجلى عنك الداء ، وتزيح الأذى ، وترد إليك بصرك فإذا هو حديد . . .

وشد ضفيرتها واستمر يقول :

— وفوق ذلك ، سأعلمك كيف تأكلين وتشربين ، وكيف تجلسين وتلبسين ، سأجعلك من بنى آدم .

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان . لم ييأس عندما وجد الداء متشبثاً قديما ، يجادله بعناد ولا يتزحزح . ثابر واستمر ولاحت بارقة الأمل . ففاطمة تتقدم للشفاء على يديه يوماً بعد يوم ، وإذا بها تكسب فى آخر العلاج ما تأخرته فى مبدئه ، فهى تقفز أدواره الأخيرة قفزاً .

ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة فى عافية ، فتش فى ذهنه وقلبه عن الدهشة التى كان يخشاها ، فلم يجدها .

١٣

وافتتح إسماعيل عيادته فى حى البغالة بجوار التلال ، فى منزل يصلح لكل شىء إلا لاستقبال مرضى العيون . الزيارة بقرش واحد لايزيد . ليس من زبائنه متأنقون ومتأنقات ، بل كلهم فقراء ، حفاة وحافيات ، والغريب أن شهرته استقرت فى القرى المجاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها ، فاكتظت داره بالفلاحين والفلاحات ، يجيئون بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج

كم من عملية شاقة نجحت على يديه ، بوسائل لو رآها طبيب أوربا لشهق عجباً . استمسك من علمه بروحه وأساسه ، وترك المبالغة فى الآلات والوسائل اعتمد على الله ، ثم على علمه ويديه ، فبارك الله فى علمه ويديه . ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات

وشراء الأطيان ، وإنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه .

وتزوج إسماعيل فاطمة ، وأنسلها خمسة بنين وست بنات .

وكان فى آخر أيامه ضخم الجثة ، أكرش ، أكولا نهما ، كثير الضحك والمزاح والمرح ، ملابسه مهملة ، تتبعثر على أكمامه وبنطلونه آثار رماد سجائره التى لاينفك يشعل جديدة من منتهية . وأصيب بالربو فاحتقن وجهه ، وتندى العرق على جبينه ، وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى . وأصبح من يشاهده لايدرى أهو متعب أم مستريح . فلما احتبست ضحكاته فى حلقه ، اجتمعت فى عينيه ، فليس هناك عيون أقوى على التعبير من عيون المصلورين يكاد يقفز منها إليك شيطان لعوب ، كلها حب وفهم ، فيها خبث وطيبة ، وتسامح وإعزاز ، وكأنها تقول لك قبل كل شىء :

— ليس كل ما فى الوجود أنا وأنت ، هناك جمال وأسرار ومتعة وبهاء . السعيد من أحسها ، فعليك بها عليك . . .

إلى الآن يذكره أهل حى السيدة بالجميل والخير ، ثم يسألون الله له المغفرة . لم ؟ لم يفض إلى أحد بشىء ، وذلك من فرط إعزازهم له . غير أنى فهمت من اللحظات والابتسامات أن عمى ظل عمره يحب النساء ، كأن حبه لهن مظهر من تفانيه وحبه للناس جميعا .

رحمه الله . . .

لتحميل المزيد من الكتب والروايات
https://ar.frenchpdf.com